



— روايات مصرية للجيب —

هسى فى حياتى

زهور
ه



Looloo

www.dvd4arab.com

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع
١٠ شارع صلاح سالم - القاهرة - ت ٩٠٨٨٨٨

إن الحب بمعناه الكبير .. ومعناه السامى ، وبابتعاده عن
الأنانية والرغبات والشهوات ، هو أعظم شيء خلقه الله فى
هذا الوجود !!

وفى هذا الزمن الذى طغت فيه الأطماع المادية
والأنانية الفردية ، نحن نحتاج الآن لمن يسمو بمشاعرنا ..
نحتاج لهذا النوع من الحب .. نحتاج لزهور نستنشق
عبرها ، فتحرك مشاعرنا ، وترقق عواطفنا ..
وفى كل قصة من قصص هذه السلسلة ، دعنا ننتقل
من زهرة إلى زهرة .. فى بستان ملؤه جمال المشاعر ..
ورقة الأحاسيس .. وزهور الحب .

المؤلف

١ - جزء من الحلم يتحقق ..

صديقى العزيز (رأفت) .. سألتنى مراراً عن قصتى مع
تلك السيدة ، التى استطاعت أن تنتشلنى من وهدة اليأس
وتدفعنى إلى ذروة النجاح .. وأن تحيلنى من إنسان ضائع
يائس محطم ، اسودت الدنيا أمام ناظره ، وتلوّنت بأصباغ
شديدة القتامة .. إلى آخر ناجح متفوّق ، يقبل على الدنيا
من جديد بإصرار وإرادة ، جعلت منى أحد مشاهير هذا
المجتمع .

وأذكر فى هذه المناسبة عبارتك التى لا أنساها قط ..
إن هذا التحول الذى أحدثته فى حياتى « جعلها أشبه
بربان مقتدر ، وسعه أن يقود سفينة محطمة ، ليجتاز بها
بحار اليأس ، راسياً بها إلى مرافئ الأمل والنجاة .. » .
لأنها إحدى عباراتك الأدبية البارة التى تجيد صياغتها .
لكن صدقتى حين أقول إن كل ما تستطيع أن
تصوغه من عبارات ، لا يكفى للتعبير الصادق عن هذه
السيدة التى عرفتها ، أو يوفىها حقها ..

وربما أن إلحاحك المستمر في معرفة تفاصيل قصتي معها مردّه إلى أنك قد شعرت بحاستك الأدبية المتميزة ، أن تلك القصة تصلح لأن تكون مصدراً لإلهامك الروائي .. وأنك تستطيع أن تنسج منها خيوطاً لإحدى رواياتك القادمة ..

ومن أجل هذا كان ترددي وهروبي المستمر من كشف حقيقة تلك القصة ، برغم إلحاحك المتواصل .. فقد كنت أشعر دائماً أن هذه القصة لا تصلح قط للمزايدة الروائية ، ولا لإضافة بعض التفاصيل الخيالية التي لا بد أن يضيفها الكاتب لتلك الشخصيات الواقعية التي تكون مصدراً لإلهامه .

فقصتي لا تصلح إلا لأن تروى كما هي .. دون إضافة أي تفاصيل ، أو أي مزيد من خيال الكاتب . إن ما ينقصها فقط هو دقة التعبير .. أو بمعنى آخر التعبير الصادق الأمين عن تلك المشاعر والأحاسيس ، والعواطف النبيلة ، التي عشناها في تلك الفترة التي قضيناها معاً ..

وبما أنك قد وعدتني - وأنا أصدق هذا الوعد - بأنك لن تكتب عن هذه القصة ، وأن تفاصيلها لن تتعدى كليتنا .. فسوف أروى لك يا صديقي قصتي معها ، وما أحدثته هذه الإنسانية في حياتي .

لقد بدأت هذه القصة بعد هجرتك إلى كندا منذ سنوات طويلة مضت .. وإن كانت مقدماتها قد بدأت قبل ذلك بكثير .

بدأت منذ ارتباطي بالإنسانية الأخرى التي كانت - وقتئذ - تمثل بالنسبة لي صورة حياة رائعة للصدق والحب والإخلاص .

الصدق والحب والإخلاص !! مشاعر وأحاسيس لم تكن سوى صورة وهمية نسجها خيالي وحده .. وعاشها قلب مخدوع لرجل غررت به عواطفه ، فأعمت عينيه عن الحقيقة برغم وضوحها .

بدأت القصة منذ ارتباطي بـ (كريمة) .. وأنت تدرك جيداً ماذا كانت تمثله (كريمة) في حياتي .

لقد كانت الحلم الذي تفتحت عليه عيناي مذ كنت طالباً في سنواتي الأخيرة بالجامعة .

حلم شاب لا خبرة له ، ولا تجربة ، لم يسبق له العوم في بحار الحب وأمواجه بكل ما كان يصوره خياله البريء عن هذه البحار من سحر وغموض ، وبكل ما تحمله أمواجه من مشاعر متناقضة ، تمثل في خياله أروع سعادة يمكن أن يعرفها البشر ، وأعظم شقاء يمكن أن يكابدوه .. لم يكن في حياتي أيامها سوى الدراسة والرغبة الجارفة في النجاح والتفوق .

وكانت كتب القانون هي شركاؤك الوحيدون في صداقتنا الحميمة إلى أن عرفت (كريمة) .. وعرفت معها تلك المشاعر المجهولة التي لم يجربها قلبي من قبل .

ولم يعد النجاح والتفوق يمثل بالنسبة لي هدفاً في حد ذاته ، قدر ما أصبح بالنسبة لي وسيلة .. وسيلة تقربني من الاقتران بهذه الفتاة التي عرفت معها - لأول مرة - معنى الحب .

وصارت (كريمة) هي كل شيء في حياتي .

أقبلت على حبها بمثالية ساذجة ، ورومانسية شاب عديم الخبرة ، لا يعرف من الألوان إلا الأبيض والأسود .. فلم تستطع عيناي أن ترى تلك الجوانب الرمادية التي تكمن في شخصية هذه المخلوقة .. هذه المخلوقة التي كانت أكثر واقعية في تعاملها مع عصرها .

ذلك العصر المادي الذي أصبح لكل شيء فيه ثمنه حتى العواطف والمشاعر .

ولأن الله خلقني إنساناً حساساً عاطفياً بطبيعته ، يتعامل مع ما يدور حوله من خلال مجموعة من القيم والمثل ، والمبادئ التي ترسخت فيه ، وأصبحت جزءاً من تكوينه .

فلم أستطع أن أفسر هذه النظرة التطلعية برغم وضوحها في (كريمة) .

بل ربما كنت أداري هذا التفسير - برغم إدراكي له - وأتعمد عدم الفهم حتى لا أشوّه تلك الصورة

٢ - صراع بين اتجاهين ..

صديقي العزيز (رأفت) .. معذرة إليك .. دعني أتوقف
عن الاسترسال لحظة .. فكلما انتهى تفكيري إلى ما سأسرده
عليك ، أشعر حقيقة أن قلبي ينزف ..

ف ذات يوم كنت جالسا في الكازينو المطل على النيل
في انتظار (كريمة) ..

وطال انتظاري في هذا اليوم ، فقد تأخرت عن
موعدھا على غير العادة ، إلى أن حضرت أخيراً .

ابتدرتني قائلة وعلى وجهها تغير أقلقني :
— مساء الخير يا (مدحت) .

أجبتها وأنا مترأوح بين الغضب والقلق :
— مساء الخير يا (كريمة) .. ماذا أخرك كل هذا

الوقت ؟

علا صوتها على غير العادة حين قالت :

— ليس المهم هو ما أخرني .. المهم أنني قد أصبحت
في موقف حرج للغاية أمامهم في المنزل .

الوهمية التي نسجها خيالي حول الحب والصدق والإخلاص
التي توهمت أنها تملأ كيان هذه المخلوقة .

إلى أن تخرجنا ، وبدأت أشق طريقى للنجاح في عالم
المحاماة .

وتمحق جزء من الحلم ، الذي سعيت من أجله ..
خطبت (كريمة) وشعرت أن الحياة قد بدأت تقبل
على بكل بهجتها وسعادتها !!

* * *



خطوبتنا طالت .. وأنت ما زلت واقفاً مكانك ،
لا تتحرك إلى الأمام خطوة واحدة .

قلت وأنا أحاول السيطرة على صوتي :
— وماذا في وسعي ولم أفعله ؟ .. أنت تعرفين أنني
ما زلت محامياً مبتدئاً .. لقد انتهيت من فترة التمرين منذ أشهر
قليلة ، ولكنني بدأت أضع أقدامي على الطريق .
إن الأستاذ (فوزي) يتنبأ لي بمستقبل باهر في عالم
المحاماة ، ويقول لي إنني أمتلك استعداداً طيباً للغاية ، لكي
أكون محامياً مرموقاً

قاطعتني قائلة :

— هراء .. كل هذا محض هراء .. أتعرف كم من
السنوات يتطلبها محام مبتدئ مثلك ؛ لكي يفتح لنفسه
مكتباً يدر عليه دخلاً محترماً ؟ !

وكم من السنوات الأخرى التي يستطيع خلالها تكوين
نفسه .. أن تكون له شقة مناسبة .. وسيارة ... إلى غير
ذلك من متطلبات الحياة الأساسية ؟ !

ألا تنظر إلى صديقك (صلاح) ؟ ألا ترى أنه خلال
العامين اللذين أضعتهما في التمرين بالمحاماة ، أصبح يمتلك

شقة في الزمالك وله بدلاً من السيارة ثلاث ، ودخل
ثابت يزيد على ثلاثة أضعاف دخل ذلك الأستاذ الذي
تعمل في مكتبه ؟ !

قلت وأنا أغالب انفعالاتي :

— لا تنسى أن (صلاح) لم يأت بكل ذلك من
فراغ .. إن والده يمتلك شركة للتصدير والاستيراد متعددة
الفروع ، في أجزاء مختلفة من العالم ، وقد جعل ابنه
شريكاً له بنسبة أربعين في المائة ، مما تدره هذه الشركة .
أما أنا فلم أولد وفي فمي ملعقة من ذهب مثله .

قالت وفي صوتها حدة :

— إنني لا أطلب منك أن تكون مثله .. لأنك مهما
حاولت فلن تستطيع ، ولكن على الأقل حاول أن تستفيد منه .

لقد عرض عليك أن تعمل معه في فرع الشركة في
الخليج .. ولكنك رفضت بكل إباء ، وبدلاً من أن
تشكره قدمت له دروساً في الإخلاص للمهنة ، وعشقك
للقانون ، ورسالتك نحو العدالة .. إلى آخر هذه الدروس
العقيمة المكررة ، التي لا تفتح بيتاً ، ولا تقيم حياة .

— (كريمة) ، أنت تعرفين أننى أحب المحاماة ،
وأجد نفسى فيها .

لأننى لم أنجح وأتفوق ، وأنكبّ الليالى على دراسة
كتب القانون ، لكى أعمل فى النهاية عملاً تجاريًا لا أفهمه .
— و (صلاح) .. ألم يكن زميلك فى هذه الكلية التى
نجحت ، وتفوقت فيها ؟

ربما لم يكن ناجحاً ومتفوقاً مثلك فى دراسته ، ولكن
المهم أنه أصبح إنساناً ناجحاً ومتفوقاً فى عمله .. ذلك العمل
الذى تنبذه مدعياً عدم فهمه .

— لا تنسى أيضاً أن المحاماة لها نجاحها المادى .. كما أن
لها قيمتها الأدبية .

— نعم .. ولكن ذلك النجاح المادى يتطلب وقتاً طويلاً
حتى يتحقق . وقتاً يمكن اختصاره فى عامين فقط من
العمل مع مليونير مثل (صلاح) ..

— إن المحاماة مثل الطب .. تحتاج إلى الممارسة .. وهذا
العمل الذى يعرضه على (صلاح) سيحرمنى بالتأكيد هذه
الممارسة ، ثم لأننى اجتزت امتحان الماجستير ، وأعد نفسى

الآن للدراسة (الدكتوراه) فى القانون الجنائى ، وبدأت
أحضر الرسالة بالفعل .

— حسناً .. افعل ما يحلو لك .. ولكنى أحذرك أننى
لن أتحمّل الانتظار عدة سنوات أخرى .. وما لم تتحرك
سريعاً فى الاتجاه الصحيح ، فستصبح خطبتنا مهددة بالفسخ .
— (كريمة) .. ماذا تقولين ؟ هل أصبحت الأمور

بيننا مقصورة على الماديات فقط ؟ وأين الحب الكبير الذى
يجمعنا ، والذى كانت تذوب أمامه كل العوائق والموانع ؟
أنت تعرفين أن تأخير زواجنا يرجع إليك أنت
لا إلى .. فقد عرضت عليك أن نتزوج فى شقتى الصغيرة
بعد وفاة والدتى ، ولكنك رفضت ذلك .

— وهل تسمى ذلك الجحر شقة ؟ لا .. أنت تعرف
شروطى جيداً حول الشقة التى سأعيش فيها ، والحياة التى
أحياها ، وأنا لن أتنازل عن أى من هذه الشروط .

ثم قل لى .. أين الدخل الذى سيكفى متطلباتنا ؟ هل
تعتقد أننى أستطيع العيش معك بهذه الجنيئات القليلة ، التى
تحصل عليها من القضايا التى يمنّ بها عليك أستاذك ؟

— لقد تغيرت كثيراً يا (كريمة) .

— أنت الذى لا تعرف كيف تتعامل مع العصر الذى
تحيا فيه .

(مدحت) .. إننى ما زلت أحبك .. وهذا هو
ما يجبرنى على الاستمرار معك حتى الآن ، برغم أفكارك
العتيقة هذه .

ولكن عليك أن تتغير .. عليك أن تجارى هذا العصر ،
ولا تنظر للأمور من جانب واحد فقط .

إن النجاح الحقيقى فى هذا العصر لمن يملك الكثير من
المال والثراء ، وليس لمن يملك الكثير من تلك القيم البالية
التي عفا عليها الزمن ، ويتشدد بها المتفلسفون ، مثل :
الإخلاص للمبادئ ، والمثل العليا ، ورسالة العدالة ..
إلى غير ذلك من الكلمات التي لا تصلح إلا للروايات
المثالية .

كانت ألفاظها وتعابيرها تهاوى على كالمطارق ، بل
كالطعنات .. فهتفت وقد احتقنت سمحتى وفار دمي :

***** ١٦ *****

— والحب .. والعواطف .. والمشاعر العميقة التي
جمعت بيننا .. أليست كل هذه قيماً معنوية ، موجودة جنباً
إلى جنب مع تلك القيم المادية التي عنها تتحدثين .

أجابت وقد اكتسى وجهها بتعبير لم أرتح له :
— إن الحب فى عصرنا هذا ، إذا لم تسنده الماديات
لا يعيش طويلاً .

قلت وأنا أغالب مشاعرى وأحاول السيطرة على
أعصابى حتى لا أتهور ، فتصدر منى لفظة قد أندم عليها :

— برغم أننى غير مقتنع برأيك .. لكن ما المطلوب
منى أن أفعله الآن بالتحديد ؟

لانت أساريرها ، فأدنت وجهها من وجهى ، وقالت
فى اهتمام :

— لقد قابلت (صلاح) اليوم .. وعرضه بالنسبة لك
لم يزل قائماً ، اذهب غداً وقابله فى الشركة .. قل له إنك
موافق على العمل معه بالأجر الذى سبق تحديده .

— دعيني أفكر .

***** ١٧ *****

— لا وقت هناك للتفكير .. إن أمامك فرصة يحلم بها الكثيرون ، إنها السبيل الوحيدة أمامنا يا (مدحت) ، لكي نسرع في إتمام زواجنا ، وتحقيق أحلامنا .
— تقصدين أحلامك .

— من المفروض أن أحلامنا واحدة .

— لقد كانت كذلك فيما مضى .. حينما كانت عواطفنا ومشاعرنا واحدة .. عندما كان للحب القيمة الأولى في علاقتنا .. إلى أن بدأت تلك القيم المادية تسيطر على تفكيرك تدريجياً .

— (مدحت) .. لا تفهمنى خطأ .. إن حبك لم يزل له المكانة الأولى في عقلى وقلبي .. ولكن هل تكره أن نعيش معاً حياة اجتماعية كريمة ؟

هل تكره أن تكون لك سيارة وشقة فى حى راقى ، وأموال فى البنك ؟

— ليس هناك من يكره ذلك بالطبع .. ولكنى أريد أن يأتى من خلال عملى الذى أحبه فى مساره المناسب ووقته المناسب ..

— هل سنعود إلى هذا الحوار من جديد ؟

— من أسف ، حتى لغة الحوار بيننا لم تعد مفهومة .

فليكن .. سأذهب لمقابلة (صلاح) غداً ؛ ما دامت

هذه هى رغبتك ..

وأمسكت يدي وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة

ارتياح ، أو انتصار .. لا أدري ..



في اليوم التالي ذهبت للقاء (صلاح) .. (صلاح) صديق القديم برغم الاختلاف الكبير بيننا .. فهو دائماً يحدد أهدافه في إطار المصلحة .. والغاية عنده دائماً تبرر الوسيلة ، ويسمى هذه واقعية وفهماً للعصر .. نفس الأفكار تقريباً التي تعتنقها (كريمة) .

أما بالنسبة لي ، فالمبادئ دائماً كانت تحكمني ، وتحديد لي إطار حياتي .. فالمصلحة من وجهة نظري - إذا كانت على حساب الآخرين - لا تعدو أن تكون انتهازية رخيصة .

والغاية إذا كانت شريفة ، فلا يمكن تبريرها إلا بواسطة وسيلة شريفة ، ذلك هو فهمي الذي لا يتفق مع ذلك العصر .. لكنني لا أفهم سواه .. واستقبلني (صلاح) بترحاب بالغ قائلاً :

- أهلاً (مدحت) .. شرفت المكتب .. هل كان لابد أن ألتقي بـ (كريمة) أمس حتى تأتي لزيارتي ؟

- أهلاً بك يا (صلاح) .. لقد أخبرتني (كريمة) أن العرض الذي قدمته لي من قبل لم يزل قائماً .. فهل هذا صحيح ؟

وابتسم (صلاح) ابتسامة لم أفهم مغزاها .. أمي ابتسامة رضا ؟ أم هي ابتسامة شماتة ؟ قائلاً :

- وأحلامك عن المحاماة ؟! ورسالة (الدكتوراه) ؟! ورسالتك نحو العدالة ؟! إلى غير ذلك من الأفكار التي كانت تسيطر على عقلك وتفكيرك ؟!

- أنت تعرف أن (كريمة) هي أغلى أحلامي .. بل إنها الحلم الكبير الذي تتساند معه بقية الأحلام الأخرى .

إنني أشعر أن (كريمة) ستضيع مني يا (صلاح) .. فأفكارها أصبحت تختلف كثيراً عن تلك الفتاة التي عرفتها أيام الجامعة .. وأخشى إذا لم أتناوب مع هذه الأفكار أن أفقدها ..

- لا تلمها يا (مدحت) .. فأنت ما زلت غارقاً في الأحلام .. أما (كريمة) فقد استيقظت ورأت كيف

تدور الحياة حولها .. عاشت الواقع ، فلم تعد قادرة على
أن تعيش معك أحلامك المثالية ..

— إننى لا ألومها على ذلك .. فهى بنت عصرها ..
وأنا أفهم صعوبات هذا العصر ، ومدى قسوتها .

لكن لماذا نزيده صعوبة عندما نصرّ على أن نقفز بدلاً
من أن نخطو .. نحن الذين نزيده قسوة عندما نحول
الطموح المشروع بداخلنا إلى جشع لا حدود له .

إن (كريمة) تريد اختصار الزمن .. وترفض البدايات
البسيطة .. ترفض أن تحقق أحلامنا تدريجياً ، ونعيش لذة
الكفاح ..

وضحك (صلاح) قائلاً :

— آه .. هأنذا تعود مرة أخرى إلى الفلسفة ..
فلسفتك التى حاولت دائماً أن أفهم جدواها منذ أن عرفتكم
في الجامعة ، فلم أستطع .

وابتسمت قائلاً بمرارة :

— ولن تستطيع يا (صلاح) .. فكلانا ينتمى إلى عالمه
الخاص .

— ومع ذلك فنحن أصدقاء .. أليس كذلك ؟ دعنا
نتحدث الآن حديثاً عملياً .

في الواقع .. إن العمل الذى عرضته عليك في العام
الماضى قد شغله غيرك الآن .. وهذا بسبب ترددك وعنادك .

إننى لا أهدف من وراء ذلك بالطبع إلى العتاب
أو التأنيب ، ولكن عليك أن تفهم فقط أن العمل المتوافر
الآن قد يكون أقل في قيمته من الناحية الأدبية عن العمل
الذى عرضته عليك من قبل ، وإن كان من الناحية المادية
لا يقل عنه كثيراً .

إنه على كل حال أفضل مما تحصل عليه من قضاياك
القليلة هنا .

— ومتى يمكننى تسلّم هذا العمل ؟

— خلال أسبوع .. واترك لى مسألة إجراءات
السفر .. ستعمل بأحد المكاتب في شركتنا بالإمارات ،
وسيكون عقدك لمدة سنتين قابلاً للتجديد .

- (صلاح) .. برغم كل ما آخذه عليك من مأخذ
إلا أنني ما زلت أعتبرك صديقاً يمكن أن أثق به .
رجائي الخاص أن ترعى (كريمة) في غيابي .
- اطمئن يا (مدحت) .. ستكون في رعايتي كما
لو كنت موجوداً تماماً .
- أشكرك يا (صلاح) .. وأشكر لك أيضاً الوظيفة .



{ - صفقة رخيصة . .

وسافرت إلى الإمارات .. سافرت وصورة (كريمة)
وهي تودعني في المطار بدموع غزيرة ، لم أعرف وقتها
أصادقة كانت أم زائفة .. وبمشاعر دافئة لم أحظ بمثلها من
قبل - لا تبرح خيالي .

معذرة إليك يا صديقي .. لا أريد أن أطيل عليك
بتفاصيل قد لا تهلك كثيراً ..

ولكن لك أن تتصور أن تكون مضطراً إلى التفاني في
عمل لا تميل إليه .. وأن يضطر رجل مثلي أن يتطلع مبادئه ،
وهو يغض بصره عن عمليات تجارية مريبة ، يراها تدور
أمامه ، بل يشارك فيها وهو على يقين أنها غير سليمة تماماً .
لقد أقنعت نفسي بأنني المخطئ ، والآخرين على صواب ،
وحملت نفسي على أن أعيش أسلوبهم .. حاولت أن أجعل
من نفسي إنساناً آخر غير الذي كنته ..

وكانت صفقة رخيصة من أجل إنسانة لا تستحق .

كان ما يدفعني إلى الاستمرار والمثابرة على ذلك
العمل البغيض إلى نفسي ، تلك الرسائل المتبادلة بيني وبين
(كريمة) .

عبارات التشجيع .. وكلمات الحب الفياضة التي كانت
تبثني إياها في خطاباتنا .

ولكن شيئاً فشيئاً أصبحت الرسائل مختصرة ...
والكلمات فاترة .. إلى أن انقطعت عني رسائلها تماماً .

و ذات يوم وصلتني رسالة كانت بمثابة الطعنة النجلاء
في صدري .. رسالة موجزة كسائر رسائلها الأخيرة ..
لكنها هذه المرة كانت تختصر معها أحلامي كلها .. تختصر
كل ما يدور في رأسي من معاني الوفاء والإخلاص
والصدق .

وقرأت تلك العبارة الأخيرة في رسالتها .. قرأتها
مراراً وتكراراً وأنا لا أكاد أصدق .. كانت تقول :

« عزيزي (مدحت) .. أرجو أن تغفر لي .. فقد
كانت الظروف أقوى مني .. هذه هي الرسالة الأخيرة التي
أكتبها لك ، فسوف يتم عقد قراني في نهاية هذا الأسبوع .

مرة أخرى .. أرجو أن تغفر لي وتسامحني .. فربما
لم أكن أفضل إنسانة قابلتها في حياتك .. لكنك بالنسبة لي
أفضل إنسان عرفت في هذه الدنيا .. لذا فأنا متأكدة من
أنك ستغفر وتسامح » .

وتمرّد قلبي على أن يصدق .. كنت على استعداد
لأن أكذب العالم كله ، ولا أصدق أن (كريمة) يمكن أن
تتخلي عن حبنا بهذه البساطة ، طالبة مني في النهاية الغفران
والتسامح .

لقد غفرت وسامحت كثيراً من أجل حبي لها ..
حتى ما كان يبدو منها من أطماع مادية ، برغم أنه يبعد كل
البعد عن مواصفات الحب الذي تمنيته ، إلا أنني كنت
أغفر لها ، وأعد ذلك من النزوات المشروعة ، التي
لا تصل أبداً إلى حد الخيانة .

غفرت عيبتها بأحلامي وآمالي ، وارتضيت لنفسى
السفر والعمل في مجال لا أحبه ، ولا يستريح ضميري إلى
القيام به ، من أجل أن أرضى أطماعها ..

غفرت كل ذلك ، وكنت على استعداد أن أغفر
ما هو أكثر من ذلك إلا الغدر والخيانة والجحود ..

وعدت إلى القاهرة .. سافرت لألتقي وجهاً لوجه مع الحقيقة .. ولم كانت قسوتها على نفسي !!

ليت الأمر اقتصر على غدر الحبيبة فحسب .. بل رأيت بعيني خيانة الصديق أيضاً .

فقد كان العريس الذي سيزف إلى حبيبة العمر هو نفسه ذلك الصديق الذي حملته أمانة رعايتها ، وحفظها لي حتى أعود .

ويا له من إخلاص ووفاء !! ويا لها من رعاية !!
واندفعت وسط المدعوين في الحفل دون أن أدري إلى أين تقودني خطواتي .. حتى وصلت إلى مقعد العروسين .
وتلاقت النظرات ، وكل منها يحمل معنى مختلفاً .

ففي عيني تجسدت لوحة كاملة ، تنطق بكل ما يعتمل في نفسي من شعور بالغبن والخديعة ، والحزن والألم ، والغضب والصدمة .

وفي عينيها كانت تلك النظرة الحجلة ، التي حاولت أن تخفيها دون أن تفلح .. فغلالة الحجل كانت رقيقة شفافة للغاية ، لم تفلح في أن تستر تحتها معالم الغدر والخيانة .
وتذكرت في هذه اللحظة ، كيف أن آدم هبط من

الجنة إلى الأرض بعد أن أغوى الشيطان حواء ، لتدفعه إلى قطف التفاحة .

ولم كانت هذه التفاحة ثمناً مادياً رخيصاً للخروج من الفردوس !!

وها هي ذى حواء أخرى تبيع نفسها للشيطان .. شيطان لديه كل الإغراءات المادية التي تتناسب مع العصر .. والتي ضحت من أجلها بفردوس الحب الذي يجمعنا .

وفي عيني (صلاح) لمحت ذات النظرة الشامتة .. الشماتة التي تعبر عن الحقد القديم ، الكامن في نفسه نحوي ، منذ أيام الدراسة .

لم أكن أجد تفسيراً لهذه النظرة من قبل ، ولكنني الآن أدركت كنهها .. فقد رأيت ذات النظرة الحاقدة كثيراً من قبل .. رأيتها كلما تفوقت عليه دراسياً ، ورأيتها كلما تفوقت عليه أخلاقياً ..

لقد كان (صلاح) برغم كل ثرائه واستهائته بالتعليم ، والشهادات الدراسية يحقد على نجاحي وتفوقي .

وبرغم كل ما توافر لديه من نجاح مادي ، يشعر

بالنقص إزائي ؛ لتمسكى بمجموعة من القيم والمثل لم تنهار
تحت وطأة الظروف وماديات الحياة .

وقد حقق انتصاره الأول على ، يوم ارتضيت الوظيفة
التي رفضتها منه من قبل .. واعتبر ذلك استسلاماً لمنطقه
الذي كنت أعارضه على الدوام .

والآن ها هو ذا يحقق انتصاره الثاني ، ويسلبني أعز
إنسانة عندي .

نظرات مختلفة في عيون مختلفة !! ولكن كلها تجتمع
في النهاية لتقدم تلك التراجيديا المعادة على مرّ العصور ..
تراجيديا الحبيب المخدوع ، والصديق الخائن ،
والحيبة الغادرة .

وبصوت لا يعرف الحجل ، وجدت (صلاح) يقول لي :
— أهلاً (مدحت) .. ألن تقول لنا كلمة مبروك ؟
لم أجبه ، فقد تجمدت نظراتي على وجه (كريمة)
التي كانت تطأطي رأسها إلى الأرض خجلاً .
وبقحة لا مزيد عليها مدّ يده إلى إحدى الصواني ،
ليأخذ منها كوباً من الشراب ، قدمه لي قائلاً :

— إذن تناول كوباً من شراب العرس على الأقل .
وبدون أن أدري وجدتي وقد انتابتني حالة هستيرية
لم أستطع أن أسيطر عليها .

قذفت الكوب من يده ، ليسقط فوق ثيابه ،
وهجمت عليه ، وجذبتة من ياقة الجاكت الذي يرتديه ،
وأنا أهزه بعنف مردداً :

— خائن !! جبان !! نذل !!

لقد كانت هذه هي بداية انهيارى العصبي .. بدأت
منذ هذه اللحظة التي تعاظم فيها بداخلي الشعور بالغبن
والمرارة والخديعة .

ووجدتي أسقط تحت أقدام المدعويين الذين هاجموني
ليخلصوا (صلاح) من قبضتي

وكان آخر ما رأيته هو وجه (إبراهيم) ابن خالتي
الذي كان قد علم بمجيئي من السفر ، وتبعني إلى هنا ،
بعد تأكده من حضوري ، رأيته يندفع بين المدعويين
ليخلصني من بين أيديهم .
وبعدها غبت عن الوعي تماماً .

ولم أدر كم من الأيام ظلت فيها غائبا عن الوعي ..
ولكنني أعرف أنني في اللحظة التي استرددت فيها وعي
ظلت عدة أيام مذهولاً فاقد الذاكرة !!

وعندما استعدت وعي من هذا الدهول ، واسترددت
ذاكرتي المفقودة وجدتي راقداً في غرفة صغيرة بإحدى
المصحات النفسية .

لقد أردت في اللحظة التي رأيت فيها (صلاح)
و (كريمة) ليلة عرسهما ، أن أبدو قوياً متماسكاً ، ولكن
عقلي وجسدي لم يتحملا قسوة الخيانة وجرحها .

فأصابني انهيار عصبي ظلت أعالج منه ثلاثة شهور
داخل هذه المصحة .

وعندما خرجت منها كنت قد تحولت إلى إنسان آخر ..
فقد هجرت كل شيء .. عملي واهتماماتي .. آمالي
وطموحاتي .. وأسلمت نفسي إلى الوحدة والاكتئاب ،
بعد أن زهدت في كل ما في الدنيا عدا أحزانها ..

ولم أعد أرى من الحياة سوى ذلك الجانب المظلم
القاتم الذي ظلل حياتي بعد زواج (كريمة) من (صلاح) .
ومررت على شهور طويلة وأنا على هذه الحال ..
لم يكن يطمئن عليّ خلالها ، ويرعى شئني فيها سوى
(إبراهيم) ابن خالتي ، الذي ساندني طوال هذه المحنة ..
وطالما حاول (إبراهيم) أن يخرجني من حالة

* * *



الاكتئاب هذه .. وكمن مرة عرضني على أطباء نفسانيين
دون جدوى !!

فقد أكد له أكثر من طبيب أنني بحاجة إلى علاج
نفسى طويل ، ورعاية فى إحدى المصحات النفسية ،
ولكنه كان يعرف أنني أرفض دخول مصحات نفسية
أخرى .

وكنى أرى نظرة الإشفاق فى عيني (إبراهيم) وهو
يقول لى :

— (مدحت) .. إن الأطباء يؤكدون أن العلاج
بيدك .. فقط لو تحليت بقوة الإرادة .. عليك أن تخرج
من عزلتك ، واكتبك هذين .. عليك أن تكون أقوى
من أحزانك .

وإذا لم تكن تريد أن تساعد نفسك .. فهناك بعض
المصحات النفسية التى بها من هم على استعداد لمساعدتك ،
وشحذ همتك وإرادتك ، حتى تصل إلى مرحلة الشفاء .

وكنى أجيبه وأنا زائغ النظرات .. شارذ الفكر :
— ولماذا العلاج والشفاء لأعود من جديد لأشارك فى
هذه الحياة الشقية ؟ . حياة الغدر والخيانة .. حياة يباع فيها

الحب ويشترى .. حياة يزيف فيها الصدق .. ويداس
فيها الوفاء بالأقدام .. قل لى لماذا أشنى وأعالج ؟ لأشارك
فى حياة بشعة كريهة كهذه !؟

— (مدحت) .. إنك لست أول إنسان تخونه امرأة ،
لقد حدث ذلك للكثيرين من قبلك ، وسيحدث للكثيرين
من بعدك .

ومع ذلك فالحياة لم تتوقف ، ولن تتوقف ..
لقد طرح الكثيرون قبلك هذه الخيانات وراء ظهورهم ،
وبدعوا حياتهم من جديد بدءوا مع نساء أخريات أكثر
وفاء وإخلاصاً ، وحققوا نجاحاً باهراً فى حياتهم ..
لم يستسلموا مثلك ، ولم ينهاروا على هذا النحو .

إن الدنيا ليست بهذه الصورة البشعة التى تتصورها ..
وفى عالم الأصدقاء .. والنساء كما فى كل شىء آخر
يوجد الجيد والردىء .. الصالح والطالح .. فلا يوجد
ما يدعو لأن تغلق حول نفسك هذه الدائرة السوداء ،
وتسلم نفسك للوحدة والاكتئاب ، ليتحوّل الأمر فى
النهاية إلى حالة مرضية ، ليس لها سبب عضوى ، ولكن
سببها نفسى بحت ، بيدك العلاج منه .

أجبت وأنا أحوّل وجهي عنه :

- أتعرف أنك تصلح لأن تكون طبيباً نفسياً ؟
إنك تشبه أولئك الأطباء الذين يجعلوننا نتمدد أمامهم ،
ثم ينزلون فوق رؤوسنا بمثل هذه الكلمات الرنانة عن
التفاؤل والأمل ، والثقة بالنفس وبالحياة .

كلمات .. مجرد كلمات يسهل ترديدها .. ولكن الواقع
شيء مختلف تماماً .. لو عاش أحدهم مثلي يؤمن بقيمة المثل
والمبادئ ، التي تربي عليها طوال عمره مثلي .

لو أعطى أحدهم مثلي كل هذا القدر من الحب
والإخلاص والصدق لإنسانة لا تستحق كل هذا .

لو عرف أحدهم مثلي صديقاً يزن كل شيء - حتى
المبادئ - بميزان مادي رخيص ، ومع ذلك يؤمن بأنه
قد يفعل أي شيء إلا أن يخون صداقته .

مثالية ساذجة بلهاء !! ظلت طوال عمري أومن بها
وأعيشها ..

وفجأة .. بعد كل هذا العمر ، كشفت أنني كنت
الوحيد الذي لا أنتمي إلى هذا العالم .

لقد كان (صلاح) صادقاً ومدرّكاً لعالمنا الذي
نعيشه ، وكذلك (كريمة) .. أنا وحدي الذي عشت في
غيوبة طويلة .. غيبة غرسها في والدي طوال حياتي ،
وتأقلمت معها روي .. غيبة الصدق والقيم والمبادئ ،
في عالم لا يعرف الصدق والقيم والمبادئ .

وفي النهاية ترددون كلمات .. مجرد كلمات أنتم
أنفسكم تدركون أنها جوفاء ، ولا تساوي شيئاً في هذا
العالم الكريه .

أنا آسف يا (إبراهيم) .. ولكنني تعب .. تعب
للاغاية .. ليس الأمر .. أمر صدمتي في خيانة صديق ،
وغدر حبيبة ، ولكنها صدمتي في نفسي .

أتعرف ما الذي أحسه لو فتحت شبكاً ، أو خرجت
إلى الشارع .. إنني أشعر بأن الجميع يسخرون مني ..
كل من يراني يضحك مني ، ويقول هذا هو الأبله ..
الساذج .. الذي يصدق الحب كما جاء في الروايات ،
والمبادئ كما يتصدق بها المتشددون .

وأحياناً أشعر أنهم يشفقون عليّ .. على قيمي البالية ،

التي لم تعد تساوى شيئاً في أسواق هذا العصر .
إنني لا أريد أن أخرج إلى هذا العالم .. إنني أخشى
مخزيتهم ولا أريد إشفاقهم .

هل تفهم يا (إبراهيم) ؟ أنا لا أريد إشفاقهم .
وانخرطت في بكاء عنيف حار .

وربّت (إبراهيم) على كتنّي في أخوة صادقة وهو
يقول :

— ابك يا (مدحت) .. ابك إذا كان البكاء
سير يحك .. فإنني أدرك جيداً ما يعتمل في نفسك .

ولكن صدقتي الحياة ليست بهذه الصورة البشعة التي
تتصوّرها ، وكثيرون مرّوا بمثل أزمته ، وتخلصوا منها .

كل مافي الأمر أنك حساس بقدر زائد ، وهذا هو
سبب رد الفعل العنيف ، الذي أحدثه بداخلك زواج
(صلاح) من (كريمة) .. اسمع يا (مدحت) ، ما رأيك
في هذا الإعلان المكتوب في تلك الجريدة ؟

اقرأه بتأن ، وتمهل دون رفض مسبق ، وسوف أمر

عليك في غد لأعرف رأيك .. وصدقني أنه يتناسب تماماً
مع حالتك ..

ووضع الجريدة أمامي على الصفحة التي فيها الإعلان ،
ثم تركني وانصرف .

لقد كان نص الإعلان كالآتي :

« دار القلوب المعذبة .. لقد أنشأنا هذه الدار من أجل
كل أولئك الذين عذبته الدنيا بمآسيها ، فتركت بصماتها
المؤلمة عليهم .

إلى الذين يعانون الوحدة والاكتئاب والحزن
والمرض ، فلتلتقوا جميعاً في دار القلوب المعذبة ،
ولتشابك أيدينا جميعاً ، حتى نهرب من واقعنا الأليم » .

كان إعلاناً غريباً ، لم أصادف مثله من قبل ..
وكانت شروطه ميسرة ، فلم يكن على الراغب في الالتحاق
بهذه الدار سوى تقديم طلب إلى صاحب الدار ، مرفق
به تقارير حول ظروفه النفسية وحالته المرضية ، ليقرر
صاحب الدار بعد دراستها ما إذا كان يوافق على انضمام
صاحب الحالة من عدمه .

٦ - في دار القلوب المعذبة ..

وحملت حقيبة ثيابي ، ومضيت إلى هذه الدار ، وأنا
عازم على أن تكون مقراً لعزلي عن هذه الدنيا .

وهناك التقيت بصاحب الدار .. كان رجلاً يبدو في
الستين من عمره ، شعره أبيض فضي ، وتعبيرات وجهه
مريحة هادئة .

كان من ذلك النوع الذي يبعث فيك الشعور
بالاطمئنان ، والأبوة الحنون .

استقبلني الرجل في مكتبه ، قائلاً بنبرات تنسجم تماماً
مع ذلك الوجه النوراني :

- إننا نرحب بك في دار القلوب المعذبة ، التي
ستصبح منذ الآن دارك أنت الآخر .

إنها كما ترى تقع في بقعة هادئة منعزلة ، حيث
الهدوء والسكينة ، تتيح لك الفرصة للتأمل والتصالح مع
نفسك ..

وبعد تفكير عميق أخبرت (إبراهيم) بموافقتي على
الالتحاق بهذه الدار .. وقام بتقديم الطلب الخاص بحالتي
إلى الإدارة موضحاً فيه الظروف النفسية التي مررت بها ،
ومرفقاً به الشهادات الطبية الخاصة بحالتي ، وتقرير المصحة
النفسية التي عولجت فيها من قبل .

وبعد أيام قليلة .. جاءني الرد بالموافقة على انضمامي
عضواً مقيماً بدار القلوب المعذبة ..



أجبتة ، وقد ارتاحت نفسى بعض الشيء :

ح إننى أرجو ألا تكون مشابهة لتلك المصححات النفسية التى يوضع فيها المريض تحت الملاحظة والعلاج .

فحتى العلاج زهدته ، ولم أعد أريده .

قال ، والبسمة لا تفارقه :

— إنها بالفعل دار العلاج النفسى .. ولكنها لا تشبه تلك المصححات التى تعرفها فى شيء .

إن أسلوب العلاج هنا بسيط ، ويعتمد على إرادتك ، ورغبتك الشخصية فى الشفاء .

فإذا كنت تريد أن تستسلم لأحزانك ومعاناتك النفسية ، إذا كنت من ذلك النوع الذى يستعذب الألم ، وترى أن الغرض من مجيئك إلى هنا هو الرغبة فى الهروب بهذه الأحزان عن العالم الخارجى ، والعزلة بها بعيداً عن الآخرين ، فلن تجد هنا من يحاول أن يفرض عليك أى وسيلة من وسائل العلاج ، ولن تجد من يقتحم عليك وحدتك وأحزانك .

***** ٤٢ *****

أما إذا كنت تبحث عن وسيلة للنجاة والهداية ، وتوافرت لديك الرغبة والإرادة فى اجتياز المحنة التى تمر بها ، فالعلاج هنا لا يعتمد على أطباء أو إخصائيين ، قدر اعتماده على ساكنى الدار أنفسهم .. إن كل من سوف تقابله هنا لديه آلامه وأحزانه الخاصة به ، فإذا احتجت أن تشكو همومك وأحزانك للآخرين ، فستجد منهم من يستمع إليك ، ويشاركك معاناتك ، وهذه إحدى وسائل العلاج هنا .

وإذا أردت بدورك أن تسهم فى الاستماع إلى هموم الآخرين وآلامهم ، التى قد تفوق أحزانك الشخصية ، فسوف تجد هنا الكثير من القصص التى تستحق أن تروى ، ولا تحتاج منك إلا إلى بضع كلمات من التشجيع والمشاركة ، وهذه أيضاً إحدى وسائل العلاج .

فالهدف من إنشاء هذه الدار ، أن يتشارك الجميع فى مشاعرهم وهمومهم الشخصية قبل أن تكون مقراً للعزلة والراحة النفسية ..

***** ٤٣ *****

باختصار أن تكون أنت الطبيب والمريض في آن
معاً ..

وفي النهاية ستجد أن المكان ليس أكثر من نادٍ يضم
أصحاب القلوب المعذبة التي أشقتهم الدنيا بمآسيها .

وستكشف في النهاية أن معاناتك النفسية كانت شيئاً
ضئيلاً للغاية ، عندما تستمع هنا إلى العديد من القصص
المختلفة ، التي يرويها أصحاب تلك القلوب .

قلت وأنا أهز رأسي في أسي :

— أرجوك .. إنني لا أريد من وجودي بهذا المكان
سوى الاغتراب عن هذا العالم بكل ما فيه .. لا أريد أن
أسمع أحداً أو أستمع إلى أحد .

— كما قلت فإن الخيار لك يا بني .. لكن اسمح لي
قبل أن تغادر مكتبي أن أكون ثقيلاً بعض الشيء ،
وأخالف القاعدة التي وضعناها هنا .. اسمح لي أن أقص
عليك قصتي :

« لقد كانت لي ابنة جميلة ، وزوجة وفرت لي كل
أسباب النجاح والسعادة .

وكانت ابنتي وزوجتي هما كل حياتي .. فقد كنت
رجل أعمال ناجحاً مرموقاً ، أملك الكثير من المال ،
الذي كفل لي حياة رغدة سعيدة .

ولكن كل تلك الثروة التي كنت أملكها ، لم تكن
تساوي بالنسبة لي لحظة سعادة واحدة أقضيها بجوار زوجتي
وابنتي .

لقد كانا هما ثروتي الحقيقية ، والنعمة الغالية التي أنعم
الله بها عليّ ..

وفي يوم مشنوم كنت عائداً من رحلة عمل
بالخارج ، وكان اليوم يوافق ظهور نتيجة ابنتي في كلية
الطب .

ونجحت ابنتي .. نجحت بامتياز .. كادت تطير من
السعادة وهي تخبر أمها بالنتيجة .

ومن فرط سعادتها لم تذت .. حتى أحضر إلى المنزل
فتخبرني ، وإنما أسرعت تقود سيارتها ، وتمضي لمقابلتي في
المطار ، حتى تكون أول من يخبرني بنجاحها المتفوق ..
ورجت أمها أن ترافقها .

مضت الاثنتان وهما في قمة السعادة التي أرادا أن
يشركاني فيها لاستقبالي في المطار .

لكن القدر أراد نهاية أخرى .. أراد أن يستبدل
بالسعادة الألم وبالفرحة العذاب .

فتحطمت بهما السيارة في حادث مروّع ، على مسافة
قريبة من المطار .

وتوفيت على أثرها زوجتي .. وأصيبت الابنة بالشلل
النصفي ، وبصدمة عصبية حادة ، أدت إلى انتحارها بعد
ثلاثة أيام فقط من الحادث .. ولك أن تتصور كيف كانت
حالي في تلك الفترة .

لقد كنت مثلك منهاراً تماماً .. مستسلماً للفجيعة
والحزن ..

هجرت عملي وبيتي ، وأصبحت أقيم على وجهي ..
وفي إحدى الليالي فكرت في الانتحار والرحيل عن هذا
العالم ، الذي أصبح في نظري صورة مرادفة للجحيم .

ولكن الله كان رحيماً بي .. فلم يرد أن أحمل في الدنيا
عذاب فراق الزوجة والابنة ، وأعذب في الآخرة بذنب

اليائس الكفور ، فساق إلى في هذه الليلة رجلاً صالحاً أشبه
بالملاك الرحيم ، قابلني وأنا أقيم على وجهي في الطريق ،
وقد أوشكت على فراق الدنيا بعد أن قررت الانتحار ،
وطلب مني أن أقص عليه قصتي .

وكلما رويت له جزءاً من آلامي .. كان يروى لي
الكثير من الآلام والمآسي التي عرفها ، وانتصر عليها
بالإيمان .

وتبدلت حالي .. وتبددت أحزاني على يد هذا الرجل .
وشعرت بشعاع من نور يتسلل إلى قلبي وينيره ..
وشاءت إرادته (سبحانه وتعالى) أن يلهمني فكرة
هذه الدار في تلك الليلة نفسها ..

فوضعت ثروتي وكل أموالي من أجل إنشائها ،
هادفاً من وراء ذلك إلى جمع أصحاب القلوب المعذبة الذين
نالهم ضربة من ضربات القدر بمآسيها ؛ ليعرف كل
منهم أن همومه وأحزانه تتضاءل بجانب أحزان وهموم
الآخرين .

وأنه يمكن لأي شخص - مهما بلغ شقاؤه - أن

يكشف جوانب أخرى للسعادة بعيداً عن تلك الدائرة الضيقة للحزن التي فرضها حول نفسه .

لقد جرّبت ذلك بنفسى ، وشيئاً فشيئاً شعرت أن مأساتى الخاصة تتوارى وتشعب ، وأغرق في مآسى الآخرين وأحزانهم .

ولا تعرف قدر السعادة التي أشعر بها حينما أجد أن بعض من جاءوا إلى هذه الدار قد فارقوها بعد أن تجدد لديهم الأمل في الحياة ، وتبددت فيهم روح اليأس والاستسلام ، وأقبلوا على الحياة بقلوب وعقول جديدة تماماً .

وهذا التغيير الذى أراه فيهم هو الثمن الذى أجبني من أولئك المعذبين في مقابل إقامتهم في هذه الدار .

لقد أردت أن أقص عليك هذه القصة فقط ؛ لكى تعرف أن الاغتراب والعزلة التي تنشدها لن تحل لك المشكلة ، بل بالعكس فإنها قد تزيد من قسوتها عليك .

وإذا أردت أن تتغلب على معاناتك التي تشعر بها داخل ذاتك ، فعليك أن تفتح عقلك وقلبك للآخرين ،

وتدعهم بدورهم يفتحون لك عقولهم وقلوبهم ؛ كى يكون كل منكم البلسم الشافى للآخر .
- قلت :

- ربما قد تكون على حق في كل ما قلته .. لكن صدقنى أنتى لا أريد الآن إلا العزلة والابتعاد عن الآخرين .. فأذنأى لم تعودا تطيقان السمع ، ولسانى لم يعد يطيق ترديد الكلمات .
قال :

- كما تحب .. عموماً أريد منك أن تعرف أن كل ما قدمته لنا من تفاصيل حول تجربتك الشخصية ، وحالتك النفسية ، يحفظ لدينا في ملف سرى لا يطلع عليه أحد قط . بل يظل سراً لا يعرفه الآخرون ، وذلك حتى تكون لك حرية الاختيار في أن تطلع الآخرين على ظروفك النفسية أو لا تطلعهم .

إن الأمر في النهاية مرجعه إليك وللوسيلة التي تختارها ، ولن تجدى حتى أنا في يوم من الأيام أناقشك في أية أشياء تدور حول ظروفك الخاصة ، وحالتك النفسية .

٧ - زائرة ملائكية ..

كان بالدار أربعة عشر نزيراً .. عشرة رجال وأربع سيدات ، كل منهم جاء إلى هذا المكان حاملاً معه مأساته . على أنى لم أحاول أن أعرف أى شيء عن تلك المآسى ، مكتفياً بعزلتى التى سعدت بها .

ومرّ على أسبوع كامل فى تلك الدار بعيداً عن الآخرين ، إلا فى تلك الساعات القليلة التى كنا نتناول فيها وجباتنا ، والتى كنت أكتفى منها غالباً بوجبة واحدة طوال ساعات النهار .

ثم أعود بعد ذلك لأنفرد بنفسى فى غرفتى الصغيرة . وبعد فترة قليلة من الهدوء النسبى ، عاودتنى من جديد تلك الهواجس والاضطرابات النفسية العنيفة التى كانت تهاجمنى فى الماضى .

وحاولت المقاومة فى البداية ، لكن اضطراباتى النفسية كانت أقوى من مقاومتى .

وشيثاً فشيئاً بدأت أستسلم لحالة جديدة من الاضطراب

هذا هو مفتاح غرفتك .. غرفة رقم (٢٢) ، وهى فى ركن منعزل من الدار فيما أحسب أنك تفضل .. فقط ستجد نفسك مضطرباً للاختلاط بالآخرين ساعة تناول الطعام .. فهذه قاعدة متفق عليها هنا .. لا طعام بالحجرات .

وفى النهاية .. لم يعد لى سوى أن أدعو الله لك يا ولدى أن ينير قلبك ، ويجعلك أقوى من أحزانك وهمومك .



العصبي المصحوب بالصرع ، إلى أن شعرت بأننى أقرب
تدريجياً من حافة الجنون .

والحقيقة لم يحاول أحد أن يتدخل فى حياتى ، ويدُسْ
أنفه فى مشكلتى ، حتى صاحب الدار كان وفيّاً لعهدته معى ،
وتركنى أختار لنفسى الأسلوب الذى أرتضيه للحياة فى تلك
الدار .

كما أن عزلتى الطويلة فى غرفتى لم تتح لأحد أن يلحظ
تلك التغيرات التى كانت تطرأ علىَّ عندما تهاجمنى تلك
الحالة .

إلى أن جاء ذلك اليوم الذى كنت فيه منفرداً بنفسى
كما هى العادة ، وبدأت تلك الهواجس المخيفة تهاجمنى ..
حتى شعرت بصوتى يتحشرج ، وأنفاسى تكاد تختنق ..
وظل العرق يتصبب منى غزيراً ، حتى أننى لم أنتبه لوقع
خطواتها ، ودقات أصابعها ، وهى تطرق باب غرفتى .

ظلت تطرق الباب أكثر من مرة ، فيما كنت أعانى
من تلك الحالة العصبية التى انتابتنى فجأة .. وازدادت
غزارة العرق الذى أخذ يتصبب من جميع أجزاء جسدى .

وأخيراً .. تنبهت لتلك الطرقات على بابى ، فانتزعت
نفسى مما أنا فيه ، وقت لأفتح باب الغرفة .

ورأيتها .. رأيتها للمرة الأولى .. رأيت (عير) .

كان العدد محدوداً فى تلك الدار كما ذكرت .. وكنا
نجتمع معاً لتناول الطعام حول مائدة واحدة .

لكنها كانت المرة الأولى التى أنتبه فيها إلى أن هذه
السيدة الصغيرة ، ذات الجمال الملائكى ، تشاركنا فى دار
المعذبين ، التى نعيش فيها .. وجاء صوتها إلى أذنى مكملًا
لتلك الصورة الملائكية ، التى انطبعت فى خيالى عند
رؤيتها .. فقد كان صوتاً هادئاً رخيماً ، وإن كانت
تشوبه بعض النبرات الحزينة ، التى حاولت أن تخفيها
وهى تبتدرنى :

— أنا آسفة لإزعاجك .. ولكنك نسيت نظارتك
أمس ، وأنت تتناول طعام الغداء بجوارى ، وانتظرتُ
أن تبحث عنها أو أسلمها لك عند حضورك لتناول الطعام
اليوم .. لكنك لم تحاول البحث عنها ، ولم تأتِ لتشاركنا
الطعام كما هو المعتاد .

لذلك قرّرت أن آتي بنفسى لأسلمها لك ، وإن كنت أرجو ألا يكون ذلك اقتحاماً غير مهذب منى ، لخلوتك بنفسك .

— أشكرك يا سيدتى .

— أدعى (عبير) .. أستاذ (مدحت) ، هل أكون متطفلة لو سألتك : لماذا لم تحضر لتشاركنا طعام الغداء اليوم ؟

— فى الواقع إننى إننى ..

— يبدو أن سؤالى كان تطفلاً بالفعل .. عموماً فأنت لست مضطراً للإجابة عن سؤالى .. وأرجو المَعذرة .

وهمّمت بالانصراف .. ولكن يبدو أنها لاحظت حالة الإعياء التى كنت عليها ، وأنا أستند إلى باب الغرفة ، والعرق الذى يتصبب منى ، فعادت تقول :

— أستاذ (مدحت) ، أنت مريض ؟

— كلاً إننى بخير .. إنها حالة تنتابنى من آن لآخر .

— إن الدكتور (منير) موجود بمكتبه الآن بالدار ،

هل أستدعيه ؟

— لا .. لا داعى .. إننى بخير .. وأشكر

ولكن قبل أن أكمل جملتى ، كنت قد سقطت إلى الأرض فاقد الوعى .

* * *

أفقت من حالة الإغماء التى انتابتنى ، لأجد الطبيب واقفاً أمامى ومعه ذلك الرجل الطيب : صاحب الدار ، وتلك السيدة الرقيقة .. سألتى الطبيب قائلاً :

— حمداً لله على سلامتك .

تساءلت ، وأنا أدير رأسى فيما حوالى مستغرباً :

— أين أنا ؟ وما الذى أتى بى إلى هنا ؟

— أنت فى حجرة الفحص الطبى .. لقد تم إسعافك

من حالة مرضية عصبية ، نطلق عليها اللاوعى الإرادى ..

منذ متى وأنت تتعرض لهذه الحالة ؟

أجبت :

— لا أدرى .. لقد بدأت معى منذ عدة أشهر ،

ولكنها بدأت تعاودنى من جديد منذ أيام قلائل ، بعد أن

كنت قد شفيت منها .

— أنصت لى جيداً يا أستاذ (مدحت) .. إن اللاوعى

الإرادى بأسلوب مبسط ، حالة يفقد فيها المريض وعيه
سيكولوجياً دون ما سبب عضوى .. أى أن إرادتك هى
التي تتجه إلى إحداث ذلك الشعور النفسى بفقدان الوعي
حتى ينتهى بك الأمر إلى فقدان الوعي فعلاً .. ولكنه يكون
فى حالتك مصحوباً بنوع بسيط من الصرع ، نتيجة
تضخيم الإحساس بهذا الشعور .

هل انتابتك هذه الحالة أكثر من مرة منذ دخولك إلى
هذه الدار ؟

— نعم .

— ولماذا لم تخبرنا بذلك ؟

أجبتة بعصبية ظاهرة :

— لم أجد أن هناك ما يستحق كل هذا الاهتمام .

— يجب إذن أن تشكر السيدة التى أسرعت باستدعائنا ؛

فالنوبة هذه المرة كانت خطيرة ومتقدمة .

إن اتجه إرادتك نحو اللاوعى الإرادى يعبر عن
محاولتك الهروب من الواقع الذى تحياه .. كما أنه

قاطعته وأنا أصرخ بحدة قائلاً :

***** ٥٦ *****

— كفى .. كفى .. لا أريد تلك التشخيصات والتحليلات
المرهقة .. لماذا لا تدعوننى لشأنى ؟ لماذا تقحمون أنفسكم
دائماً فى حياتى ؟

أجابنى صاحب الدار بصوته الهادئ الحنون :

— يا سيد (مدحت) .. عليك أن تعرف أننا لا نتدخل

فى حياتك ، إلا حينما تكون مهددة بالخطر .. ولا شيء
غير ذلك .

أما إذا أردت الانتحار بهذه الصورة ، فعليك أن
تختار مكاناً آخر غير هذه الدار ؛ لكى تحقق فيها مرادك ..

ربما أن وسائل العلاج لدينا غريبة ، وغير تقليدية ،
ولكن فى النهاية فإن هذه الدار قد أنشئت لعلاج النفوس
البشرية ، وهدايتها ، وليس من أجل تدميرها .

— إننى آسف ، فأنا متعب .. متعب للغاية .

وعدت للانخراط فى بكاء شديد ..

وأشارت السيدة للآخرين أن يبارحوا الغرفة ، ثم
جلست إلى جانبي ، وهى تمسك بيدي بحنان قائلة .

— أستاذ (مدحت) .. إننى لا أعارض مطلقاً اختيارك

***** ٥٧ *****

للاسلوب الذى تريد أن تعيش به هنا ، فأنا من أنصار حرية التجربة والاختيار ، وما دمت تستعذب الألم ، ولا تريد أن تشرك الآخرين فى أحزانك ، فذلك شأنك وحدك .

ولكنى أريد أن أسأل : لماذا تقتصر على اختيار واحد ؟ لماذا لا تجرب إحدى الوسائل الأخرى ، ثم تختار فى النهاية ؟ .

لماذا تصر على أن المعاناة والعزلة والهروب من الآخرين هى الأسلوب الوحيد للتعامل مع الواقع ؟ لماذا لا تحاول أن تجرب ذلك الأسلوب الذى تتبعه هنا فى هذه الدار ؟

أن تشارك الآخرين ، وتشركهم فيما تشعر به من ألم ومعاناة .. وبعد ذلك تقرّر أن تختار بنفسك الأسلوب الذى ترتضيه ، والذى تشعر بأنه أكثر راحة لنفسك .

فإذا أحسست أن التجاوب مع الآخرين سيخفف من بعض همومك ويقودك إلى الخلاص من ذلك العذاب النفسى الذى تشعر به ، تستمر فى التجربة حتى النهاية .

أما إذا شعرت بأنك تستريح لعزلتك وانطوائك عن الآخرين ، فلك أن تستمر فى اختيارك .. فقط حاول .. حاول أن تخوض التجربة .. وكما ترى هنا ، لا أحد يجبر الآخر على شيء ، ولن تجد من يجبرك على مخالفة اختيارك فى النهاية .

قلت وأنا أجفف دموعى من فوق وجهى ، وصوتى يشى بانكسار لم أستطع إخفاءه :

— إن محاولتى الإقدام على مخالطة الآخرين وممارسة ذلك الشعور الاجتماعى مرة أخرى .. الشعور بأهمية العلاقات الإنسانية .. أن أحتاج للآخرين ، ويحتاج إلى الآخرون .. قد يجعلنى أقبل على الدنيا من جديد .

وأنا لا أريد ذلك .. إننى أخشى ذلك الشعور .. أخاف الرغبة فى الإقبال على هذه الدنيا الخادعة .

فالفتاة التى أحبتها يوماً ما ، لم تكن سوى صورة مصغرة من هذه الدنيا .. مادية .. مخادعة .. تجعلك تقبلين عليها ، وتتوسمين فيها الأمل والسعادة .. ترين الأشياء بصورة زائفة ، ولكنها جميلة ، ثم لا تلبثين ، حين تبرز لك

أنياب الغدر ، أن تجدى أن كل ما قدمته لك من آمال
عريضة وسعادة غامرة ، لم تكن سوى أوهام وخيالات ..
غلاف براق ، يخفى تحته عذاب وشقاء لا حدود لهما ..

تفاجئين بأن خلف تلك الصورة الجميلة التى صورتها
لك صورة أخرى بشعة كريهة ، لم تكونى تتوقعينها ،
أو تتخيلينها يوماً من الأيام .

قالت وقد ارتسمت ابتسامة أمل على قسماتها :
— هأنذا قد بدأت تخطو خطواتك الأولى فى التجربة ..
لقد تحدثت معى عن بعض آلامك .. وذلك يعنى أنك
شعرت بالرغبة فى أن تتكلم إلى ، أو إلى أى شخص يمكنه
أن يسمعك ، وذلك فى حد ذاته بداية طيبة .

ولم تكذ تنهى حديثها حتى انتفضت واقفاً ، وأنا
أقول بحدة وغضب :

— إن ما قلته لا يعنى سوى شئ واحد ، هو أن
تكفوا عن مضايقتى ، وعن إصراركم على أن تجعلونى
حقلاً لتجاربكم الإنسانية ، التى تريدون أن تطبقوها هنا .
عليك أن تكفى عن محاولتك السخيفة هذه لاستدراجى

إلى ذلك المختبر الاجتماعى ، الذى تريد أن تقودنى إليه .
لقد قلت من قبل : لا أريد أن أستمع إلى أحد ، أو أتحدث
إلى أحد .

وإذا كنت تبحثين عن صديق يسلى وحدتك فلتبحنى
عن سواى .

كنت فظاً معها للغاية فى هذه الليلة ، حتى أننى
لم أعبأ لحظة واحدة بذلك الشعور بالجرح ، والمهانة
الذى ارتسم على وجهها ، وجعلها تسرع خارجة من
الغرفة ، ودموعها على خديها .

وانصرفت إلى غرفتى ، وأنا فى حالة من الثورة
العارمة ، بعد أن أغلقت الباب خلفها بعنف .

ولم أدري أكانت هذه الثورة عليها .. أم على نفسى ..
ولكن كل ما أعرفه هو أننى لم أذق طعم النوم فى
هذه الليلة .. وعاودنى فى تلك الليلة ذلك الشعور الإنسانى
بالأسف والندم لإيلاام الآخرين ، برغم أننى قد تصوّرت
أنى قد نسيت هذا النوع من المشاعر ، وأنها قد تبددت
بداخلى ، وأصبحت مقصورة فقط على نوعين هما : الحزن
والكراهية .

٨ - صداقة جديدة ..

وفي اليوم التالي .. ظلت أبحث عنها في أثناء تناول الطعام ، فلم أجدها ، وسألت جاري عنها قائلاً :
- ألم ترَ تلك السيدة التي تدعى

- تقصد (عير) .. لا لأنها لم تحضر اليوم لتشاركنا الطعام على غير عاداتها .

وعافت نفسي أى رغبة في تناول الطعام بدورى ، فتركت المائدة ، وقت لأبحث عنها .

ظلت أبحث عنها في غرفتها .. وفي أرجاء الدار دون جدوى .. وأخيراً لمحتها جالسة في أحد أركان الحديقة ، الملحقة بالدار .. كانت ساهمة شاردة ، وكأنها تتطلع إلى الأفق البعيد .

وظللت أرقبها من بعيد ، وأنا متردد في الذهاب إليها ، وقد تملكني الحجل منها .

ثم لم ألبث أن استجمعت شجاعتي ، واقتربت منها قائلاً :

وكانت هذه الليلة هي الليلة الأولى التي تتبدل فيها ذكرياتي الأليمة إلى مشاعر أخرى حسبتني قد نسيتهما .. مشاعر تأنيب الضمير ..

ذلك الضمير الذي أخذ يؤاخذني على ما فعلته مع تلك المخلوقة الرقيقة التي جرحتها بقسوة ، لا لشيء سوى أنها حاولت أن تساعدني على الخروج من محنتي ..



— أسمحين لي بالجلوس إلى جوارك ؟
فأجابتنى دون أن يبدو عليها أى تعبير بالغضب ،
أو التأنيب اللذين أستحقهما .

— بكل سرور يا أستاذ (مدحت) ..

ووجدتنى أفرك أصابعى ، كتلميذ خائب ، يبحث
عن كلمات يقولها :

— إننى لا أعرف ماذا أقول عن تصرفى معك أمس ؟
ولكنى آسف حقيقة .. آسف جداً .

— إنك لست بحاجة لأى نوع من أنواع الأسف
يا أستاذ (مدحت) .. فأنا مقدره تماماً مشاعرك المضطربة
المتضاربة .

كما أننى أعرف جيداً أنك لم تعنِ ما قلته أمس ..
خاصة وأننى أرى فيك — برغم الظروف الصعبة التى تمر
بها — صورة لسيد مهذب لا يمكن أن يفكر فى إيذاء
الآخرين .

— سيدتى .. إن كلماتك تزيد من ندمى .. ولكن ربما
لو أخبرتك أننى قد أصبحت مستعداً لتنفيذ مطلبك ،

وممارسة الأسلوب المتبع هنا أكون قد كفرت بعض الشيء
عن خطئى ..

وتهلل وجهها قائلة :

— ربما أن الإقدام على اللجوء إلى التجربة ، واستخدام
وسائل مختلفة للعلاج كنوع من الاعتذار لشخصى ، لا يعد
هو الأسلوب الأمثل فى الاختيار .

ولكنى مع ذلك أرحب باستعدادك ، ما دام أن اختيارك
النهائى هو الذى سيحكم على التجربة .

— متى تريد أن أبدأ ؟

— من غدا لو أردت .

قلت :

— إننى أريد أن يقتصر الأمر أولاً على شخص واحد
أرتاح إليه ، وأشعر بأنه يصلح لأن يكون هو الصديق ،
الذى يمكن أن أبوح له بمكنونات نفسى ، وبعد ذلك أرى
إن كنت أرغب فى مخالطة بقية نزلاء الدار والاندماج
معهم أم لا .

قالت :

— هل حددت لنفسك صديقاً معيناً من بين نزلاء

الدار ؟

— لا .. فكما ترين فلاننى لم أخالط أحداً منهم من قبل

مخالطة جدية ؛ لذلك سأترك لك أن تختارى لى هذا
الصديق ، وأنا أثق فى اختيارك .

— أستاذ (مدحت) ، أتوافق أن أكون أنا هذا

الصديق ؟

وابتسمت بمرارة قائلاً :

— إن آخر ما أتصوره هو أن أقص معاناتى على امرأة .

— لماذا لا تنسَ أننى امرأة وتعتبرنى صديقة فقط ؟ ..

مجرد صديقة تروى لها عن أحزانك وهمومك ، بغض
النظر عن الجنس والنوع ولا تنسَ فى النهاية أنها تجربة ..
يمكنك أن تقبل من خلالها هذه الصداقة ، أو ترفضها .

— هل لى أن أسألك سؤالاً ؟ .

— تفضل .

— لماذا كل هذا الاهتمام بى وبحالتى النفسية ؟

— لأننى جرّبت من قبل طعم الوحدة والاغتراب ..

صدقنى لأنها لا تعود علينا بشيء سوى المزيد من الشقاء ،
والعذاب النفسى ، إنك تخاف الآن من العلاقات الاجتماعية ،
والإقبال على الدنيا من جديد .

لكن ربما لو جرّبت طعم الدفء الإنسانى .. مجرد
أن تسمع كلمة تشعر بك بأن هناك من يشاركك همومك ،
أو تواسى إنساناً بكلمة تشعر أنها قد خففت من آلامه .

ربما لو فعلت ذلك وأحسست بما سيعود عليك من
راحة وهناءة .. فقد تندم على ماضع من عمرك من سنوات
أضعتها فى عزلة ، واغتراب عن هذه الدنيا ، التى يمكن
أن نجعلها جميلة لو أردنا .



وتعددت لقاءاتنا ، ورويت لها الكثير عن حياتي وتجربتي .

رويت لها عن سنوات الجامعة .. وعن الأحلام الجميلة التي ظلت تداعب خيالي منذ أن كنت طالباً .

بل عدت معها بذاكرتي إلى ما هو أبعد من ذلك .. إلى سنوات الطفولة ، وذلك الأب المثالي الحنون ، صاحب المبادئ والقيم ، التي انتهت به إلى الفصل من الوظيفة ، وابتعاد القريب قبل الغريب عنا .. لكنه ظل شاعخاً أبيضاً ، مصرّاً على مثله ومبادئه ، وكان يقول لي دائماً تلك الحكمة التي ظل يؤمن بها :

« عليك أن تتذكر أن تخسر العالم وتكسب نفسك ، أفضل لك بكثير من أن تكسب العالم ، وتخسر نفسك » .

لقد تشبعت بمثله وقيمه ومبادئه ، برغم أنه تعذب بها .. ولكنه كان منذ اللحظة الأولى واعياً لشروور هذا العالم .. صلياً أمام من غدروا به .. وكان دائم التفاؤل في أحلك

لحظات اليأس ، لهذا كان قوياً .. قوياً فوق آلامه .. صامداً أمام من غدروا به وحاربوه .

أما أنا ، فقد أخذت هذه المثل والمبادئ منه ، مكللاً بأكليل البراءة ، أو قولي السذاجة ، لو شئت ، فكلاهما يؤديان نفس المعنى في النهاية .

لم أكن أملك وعيه وخبرته بشروور الحياة .. ولم تكن لدي قوته وصلابته أمام من غدروا بي .. والأهم من ذلك لم يكن لدي تفاؤله في مواجهة صدمات القدر .

ولهذا انهرت عند أول صدمة عاطفية واجهتها في حياتي .. لم أحتط لحقد الصديق ، وغدر الحبيبة .

ضعفت عند أول مواجهة بين مثلي وأحاسيسي ، وبين أشياء كثيرة ما تحدث في هذه الدنيا ، ولا تؤثر في الآخرين ، كالخيانة والجحود .. نعم .. إنني أعترف بأنني لم أكن أقوى من أزمتي .

لكن صدقيني .. إنني لا أملك حيال نفسي شيئاً .. هناك جرح في نفسي لا يريد أن يندمل .. ولا أعرف كيف أشفي منه ؟

كانت تستمع إلى منصته ، وعلى وجهها ذلك التجاوب
الإنساني ، مع مشاعر الألم التي كنت أعبر بها عن صدمتي ،
ليلة زفاف (كريمة) من (صلاح) .

قالت لي :

— الشيء الغريب أن ظروفنا تكاد تكون واحدة ..

فلست وحدك ذلك الإنسان الحساس ، الممتليء بمشاعر
النبيل والخير ، الذي اصطدمت مشاعره بصدمة الخيانة .

لقد تزوجت يوماً ما رجلاً كان هو كل حياتي ،
وتزوج زواجنا بابننا الصغير ، الذي كان بالنسبة لي جزءاً
لا يتجزأ من جسدي ، وعقلي وروحي .

كنت أعتبر ذلك المنزل الذي يضمنا جزءاً من الجنة ،
أودعه الله في الأرض .

لم أبخل بجهود أو عزيمة ، من أجل الحفاظ على تلك
الأسرة الصغيرة ، التي كانت كل ما أملكه ، وأعشقه
على هذه الأرض .

لقد كانت هذه الأسرة الصغيرة بالنسبة لي المستقبل ،
والآمال العريضة التي ظللت أرسمها كل يوم .

ولكن فجأة تبدل كل شيء .. ضاع المستقبل ،
والآمال العريضة تبددت من بين يدي .

كنت أجهز طعام الغداء لزوجي وابني ، إلى أن
يعود كل منهما من عمله ومدرسته .

جهزت الطعام المفضل لدى زوجي .. وأعددت
(تورتة) الشيكولاتة التي يحبها ولدى الصغير (عمر) .

ولكني ظلت أنتظر دون أن يحضر ابني من مدرسته ،
وزوجي من عمله ، ولم يتناول أحدهما هذا الطعام الذي
أعدته أبداً ..

ونظرت إلى عينيها فوجدتها قد اغرورقت بالدموع ،
التي سال بعضها على وجنتيها ، فقدمت لها منديلًا لتمسح
دمعها قائلاً :

— مدام (عبير) .. إذا كان ذلك الحديث يؤلمك ..
فأرجو أن تتوقفي عن تكلمته .

ومسحت دموعها بمنديل ، وهي تغتصب ابتسامة
كان فيها من معاني المرارة أكثر مما فيها من معاني الابتسام
قائلة :

— أنسيت أن ذلك الحديث هو جزء من تجربتنا
المشتركة في علاج أرواحنا البائسة ؟

واستمرت في رواية قصتها قائلة :

— وبعد ذلك عرفت أن زوجي كان قد تزوج من
فتاة أمريكية في الخفاء ، وهاجر معها إلى الولايات المتحدة
بعد أن أخذ معه ابنتنا الوحيد ..

كانت الطائرة تقلع بهما في نفس الوقت الذي كنت
أجلس فيه بجوار مائدة الطعام في انتظارهما ..
نعم .. لقد أعد زوجي كل شيء بعناية .. كان يعد
لذلك منذ وقت طويل ، دون أن أدري .

الزواج .. أوراق السفر .. أوراق المدرسة التي
محبها في نفس اليوم ، مدخراته في البنك .. الأشياء الثمينة
التي كان يحرص عليها ، والتي أخذها من المنزل قبل أن
يفادره دون أن أدري .

لقد رتب كل شيء بدقة .. دقة محكمة .. وكان آخر
ما أعده من ترتيبات هي تلك الورقة التي أرسلها لي زوجي
مع أحد جنود الشرطة .. ورقة الطلاق .

هكذا بدون أي مقدمات .. بدون أن أرتكب معه خطأ
واحداً في حياتي .. لم يكن لي هم سوى إرضائه ، ورعاية
ابنه ، والسهر على راحتهما .. عشت معه زوجة وفيه
مخلصة .. تحملت كل نزواته وهفواته .. تحملت من أجل
ابني ، ومن أجل حبي له .

أطاح بكل ذلك فجأة ... خرب حياتي .. وحرمني
ولدي الوحيد ، ومن دنيای التي لم أكن أعرف لي دنيا
أخرى سواها .

حاولت .. وبذلت الكثير للبحث عن ابني واسترداده ..
سافرت بنفسی إلى الولايات المتحدة ، متنقلة من ولاية إلى
أخرى ، سعياً وراء البحث عنهما ، بعد أن أنفقت كل
ما لدي من مال دون جدوى .. وهكذا ضاع كل شيء ..
وهكذا ترى أن الخيانة أمر غير مقصور على المرأة
وحدها كما تصوّرت .. وأن الشقاء لم يختصك بالنصيب
الأكبر كما تخيلت ..

الفارق الوحيد بيني وبينك ، هو أنني في النهاية لم أستسلم
للفجیعة ، وقرّرت أن أكون أقوى من آلامی .

فعدت إلى عملي مهندسة بإحدى الشركات الهندسية ،
ولم أدع أحداً يشعر بمأساتي ، التي ظلت أقاومها ،
وأهرب منها بالتفاني في العمل ، وبالإصرار والعزيمة حتى
عدت للوقوف على قدمي من جديد .

— إذن لماذا جئت إلى هذا المكان ؟

— لأنني كنت أحتاج إليه .. فأن تكون صلباً وقوياً
بطبيعتك شيء ، وأن تتظاهر بالقوة والصلابة ، وتحاول
بها داخل نفسك شيء آخر .. لقد كنت أعيش يومي في
محد دائم مع ذاتي .

كنت أحاول أن أثبت لنفسي وللآخرين من حولي
أنني قوية ، وأن لدي القدرة على اجتياز المحنة التي
ألت بي .

ولكن تلك المقاومة للأحزان في حد ذاتها نوع من
المعاناة ، وأحياناً كانت تخونني قوتي ، فأشعر أنني أريد أن
أصرخ ، وأن أبكي ، وأن أفرغ شحنة الألم ، ومرارة
الجرح بداخلي في صرخات ودموع .

لكنني كنت أعرف أنني لو أسلمت نفسي للانهيار ،

*** ٧٤ ***

فسأظل مستسلمة له إلى الأبد ، ولن أستعيد قدرتي من
جديد على المقاومة .

ولذلك جئت إلى هنا .. جئت لأهرب من معاناتي
اليومية .. وسط بشر لا يختلفون كثيراً عني في ظروفهم ،
ولا أحتاج للتظاهر بالصلابة أمامهم .

جئت لأجرب نوعاً آخر من التصدي لجراح النفس
بالمشاركة في مآسي الآخرين .

ربما كان التحاقى بهذه الدار في البداية محاولة مني
للهرب ، كما فعلت أنت ، لكنها تحولت فيما بعد إلى
مشاركة وجدانية ، تضاعف فيها كل شيء بالنسبة لي ،
إلا الحب والرغبة في إسعاد الآخرين .

ولذلك أردت أن تجرب نفس التحول الذي حدث
لي هنا .

أن تغرق في هموم غيرك ، وتكر في كيفية إسعادهم ،
وكيفية شحذ عزيمتهم ، للتغلب على آلامهم .

وبذلك ستجد نفسك شيئاً فشيئاً تنسى محنتك ،
وتعرف أن كلمات التفاؤل والأمل التي تقدمها لهم أحق بك

*** ٧٥ ***

أن تقدمها لنفسك ، وتستعيد بها قدرتك من جديد على
الوقوف على قدميك ، وشق طريقك في هذه الدنيا .
فالدنيا لا يمكن أن تكون كلها سعادة وهناءة ، كما
أنها لا يمكن أن تكون كلها عذاباً وشقاء .
وكانت بالفعل تجربة ناجحة ، وجدت نفسي أندمج
فيها تدريجياً ، وأغوص فيها بكل أحاسيسي .
ومرّت الأيام ، وتعددت لقاءاتنا .

ولم تعد هذه اللقاءات تقتصر عليها وحدها ، بل
اتسعت لتشمل أشخاصاً آخرين من بقية نزلاء الدار .
وأحسست بتلك المشاركة الوجدانية ، التي حدثتني
عنها (عبير) من قبل .. شعرت بالتعاطف والتقارب مع
أولئك البؤساء ، الذين أذاقهم الحياة مرارتها .
أدركت مدى ضالة محنتي وتفاهتها بجوار تلك
القصص التي سمعتها هنا ، وشعرت أنني أكاد أنسى صدمتي
تدريجياً .

كنت أبحث دائماً عن وسيلة لإسعادهم ، وأنتقي كلمات
العطف والتفاؤل ، التي تخفف من أحزانهم .

وكم كانت سعادتي عندما كنا نتشارك جميعاً في الضحك
والابتسام ، والألعاب المسلية .
واختفت تلك النوبات التي كانت تداهمني بين الحين
والآخر .. لقد كان حقاً أسلوباً جديداً في العلاج النفسي ،
جديراً بالتجربة .. فالإحساس بالآلام الآخرين ، والرغبة
في إسعادهم ، تداوى جراح النفس وتشفئها ..



وفي أحد الأيام ، وبينما أنا جالس معها قلت لها :
- لا أدري في الحقيقة كيف أشكرك ، فبفضلك ،
وبفضل ذلك الرجل الطيب ، صاحب الدار ، أشعر أنني
قد أصبحت مخلوقاً آخر .. لقد ألقيت وراء ظهري
ذكرياتي المرة ، وأقبلت على الحياة من جديد ، بحب وود
وصفاء .

(غير) .. أسمحين لي بأن أنطق اسمك مجرداً ؟
- لقد كنت أتمنى أن تفعل .

- (غير) .. إنني لن أسامح نفسي على إيلائي وإهانتني
لك يوم طلبت مني أن أخوض تلك التجربة الإنسانية .
فلولا أنت لظلت حتى اليوم غارقاً في بحار اليأس ،
التي ألقيت بنفسي فيها ..

- ليس المهم الآن هو الشكر ، أو طلب الغفران ..
إنما المهم هو أن تسأل نفسك الآن : وماذا بعد ؟

- ماذا بعد ؟ لا أدري ماذا تقصدين ؟

- (مدحت) .. لقد شفيت .. عبرت بحار اليأس ،
التي ألقيت بنفسك فيها ، ووصلت إلى شاطئ الأمان .
حان الوقت لمغادرة هذه الدار .. وعليك أن تعود
لعملك ، وحياتك الطبيعية من جديد .

- ماذا تقولين ؟ إنني لن أفارق هذه الدار .

- ليس معقولاً أن تظل فيها بقية العمر .. وإلا فما
فائدة العلاج ، والتحول الناجح ، الذي حدث لك هنا ؟

هذه الدار مخصصة لأصحاب الأزمات ، والأمراض
النفسية ، وأنت تغلبت على أزمته ، واستعدت توازنك
النفسى .. أصبحت إنساناً طبيعياً بكل المقاييس ..
فما جدوى استمرارك في هذه الدار ؟

- وأنت .. أنت الأخرى شفيت من محتك ، فإذا
يدعوك إلى البقاء والاستمرار هنا ؟

- أليس من الجائز أن تكون مخطئاً ؟

- ماذا تعنين بذلك ؟

- (مدحت) .. إنني أشعر بالتصالح مع نفسي ،

لأننى هنا وسط هؤلاء الذين قابلتهم هنا .. ولكن حين أخرج بعيداً عن هذه الدار سأفقد هذا التوازن والاستقرار .

— وهذا هو نفس ما أشعر به داخل نفسى ..

— لا .. لا تحاول أن تخدع نفسك ، وتخدعنى .. لقد عدت (مدحت) السابق ، بل أكثر من ذلك .. لقد أصبحت أكثر فهماً للحياة وتقلباتها ، وأكثر قدرة وصلابة على الصمود أمام مصاعبها .

— لا تحاولى أنت أن تقدمى لى كلمات كلها تفاؤل ، وتشجيع ، فى حين أنك لاتعملين بها .. لقد قُلْتُ لى من قبل : إن لديك القدرة على الصمود والصلابة مهما كانت العقبات التى تعترضك .. والآن تخافين الخروج من هذه الدار ؛ لأنك تشعرين بأنك ستفقدين فى الخارج توازنك النفسى ..

— لقد قلت لك إننى حاولت أن أكون قسوية ، وتظاهرت بالصلابة ، وكان ذلك فى ذاته نوعاً من المعاناة ، ولأننى جئت إلى هنا هرباً من هذه المعاناة .

ولكن يوم أن أشعر مثلك بأننى قد تجاوزت محنتى حقيقة لا تظاهراً .. وأنى استعدت توازنى النفسى كإنسانة طبيعية .. فتأكد أننى لن أستمرو يوماً واحداً فى هذه الدار .

أما أنت فقد أصبحت إنساناً طبيعياً ، ولديك كل مقومات النجاح ، فلا داعى لبقائك هنا .. وانفعلت قائلاً :

— ومن الذى قال لك إننى عدت إنساناً طبيعياً متوازناً ؟ أأنت محللة نفسية ؟ إذا كان وجودى هنا يضايقك يمكننا أن نتوقف عن هذه اللقاءات ، التى نعقدتها معاً ؟

وانتصبت واقفة وهى تقول فى غضب :

— هذه المرة لن أسامحك ؛ لأننى على يقين أنك قد شفيت ، ولم يعد لديك عذر ؛ لكى تخرج الآخرين .

هممت بالانصراف ، ولكنى أمسكت يدها قائلاً :

— (عبير) .. أنا آسف .. آسف جداً .. وأرجو أن تسامحينى ؛ فأعصابى متوترة .. فهناك أشياء كثيرة

أصبحت تربطني بهذه الدار ، بنفس القدر الذى أجد فيه
أشياء كثيرة تبعثنى عما بخارجها .

أيمكن أن نؤجل هذه المناقشة إلى غد ؟

— كما تحب .. وأرجو أن تفكر فيما قلته جيداً .

وقبل أن تنصرف عدت لأسألك من جديد ... ربما
للتأكد من أنها ستأتى ، وأنها قد غفرت لى انفعالى .

— ستأتين .. أليس كذلك ؟

وابتسمت دون أن تجيبنى .. كانت ابتسامتها خلافة ،
رقص لها قلبي فرحاً .. وتأكد لدى ذلك الإحساس الذى
شعرت به نحوها من قبل .. نعم إن ما يربطني بهذه المخلوقة
ليس مجرد الصداقة ، والمشاركة الوجدانية ، والإحساس
بالامتنان لما قدمته لى من مصالحة مع نفسى ، وإقبال على
الحياة .

لا .. إننى أحبها .. نعم أحبها .. لن أخدع نفسى
خوفاً من تجربتى الماضية .. لن أهرب منها خشية ذكرياتى
مع (كريمة) .. فهذه المرة لم يخدعنى قلبي ، ولست أعيش
صورة وهمية نسجتها من خيالى ، لقد مضى زمان الوهم ..

وأنا الآن أعيش الحقيقة .. فهذه الإنسانية لا يمكن أن
تخدع ، ولا يمكن أن تخون .

إنها شئ مختلف تماماً عن (كريمة) .. نعم .. لقد كانت
(كريمة) هى الوهم ، و (عبير) هى الحقيقة .

ولكن ترى لو بحث لها بهذه الحقيقة ، هل سأجد
عندها نفس المشاعر التى أحس بها نحوها الآن ؟ ! !



والتقينا في اليوم التالي ، حيث بادرته بالسؤال قائلة :

- هل فكرت فيما قلته لك أمس ؟

- نعم .

- وما الذي قررته ؟

- لا أستطيع مغادرة هذه الدار .

- لقد خاب أملى فيك .. فقد كنت بالنسبة لى تجربة

راحت على نجاحها .

- وقد نجحت بالفعل .

- نجاح ضئيل .. لقد قطعت نصف الطريق فقط نحو

النجاح الحقيقى .

- وهل أنا بالنسبة لك مجرد تجربة ، راحت على

نجاحها فقط ؟

وتجاهلت سؤالى قائلة :

- (مدحت) ، أتقول لى : ما الذى يحول بينك

وبين العودة لعملك وحياتك الطبيعية صراحة ؟

- (عير) .. إنك لا تفهمين ، لقد تغلبت على معاناتى

النفسية نعم .. لكن ليس معنى ذلك أننى سأستطيع أن

أستأنف حياتى كما كانت من قبل .. لن أستطيع أن أعود

إلى ممارسة عملى ، الذى أحبه مثلاً كما كنت أتمنى ممارسته

فى الماضى ..

- وما الذى يمنع ؟

- أنت تعرفين أننى كنت أعمل محامياً .. ولن يوافق

أحد على أن أعمل فى مكتبه بعد دخولى إلى المصلحة

النفسية .. لن يأتبنى أحد على قضاياه ..

- لقد أخبرتنى من قبل أنك تمتلك شقة صغيرة ،

تقيم فيها وحدك ، فماذا يمنع من أن تتخذ منها مكتباً

لنفسك ، وتستقل بعملك ؟

- هناك الكثير من الموانع ؛ فالشئ الذى سيرفض

من أجله أصحاب المكاتب أن أعمل معهم سيكون هو

نفس الشئ الذى سيرفض من أجله أصحاب القضايا أن

يسلموا لى قضاياهم .. فالكثيرون يعلمون قصتى مع

(كريمة) ، وبما انتهت إليه هذه القصة .. وأيضاً أنا

نفسى أشعر بأننى لم أعد قادراً على هذا العمل .. فالمحاجة
تحتاج إلى الممارسة .. والممارسة لم تتوافر لى منذ فترة طويلة.
- إن هذه الأعذار واهية .. فما دمت تحب مهنتك
فلا بد أنك ستنجح فيها ، والناس سترى أنك قد شفيت
حينما تقف لتتراجع ، وتطرح مذكراتك أمام القاضى فى
ساحة المحكمة .

ويكفيك قضية واحدة تكسبها ؛ لكى تكسب ثقتهم ،
وإقبالهم عليك .. هناك أيضاً (الدكتوراه) التى حدثتني عنها من
قبل .. هل نسيت أحلامك حول تحضير (الدكتوراه) ؟
وابتسمت وأنا أنظر إلى وجهها قائلاً :

- أتعرفين أنك على نقيض (كريمة) تماماً ؟ كيف
لم أفطن لهذه الحقيقة من قبل ؟ حقيقة إن الارتباط بين
اثنين لا يتحدثان لغة واحدة محكوم عليه بالفشل حتماً .

نعم .. لقد كنت أنا و (كريمة) نتحدث بلغة مختلفة ..
أما معك أنت فإننا نتحدث لغة واحدة .

وأمسكت يدي ، وهى تقول لى بإصرار :

- (مدحت) ، ستكون لغتنا واحدة بالفعل ، حينما

تخرج من هذه الدار لتجابه الحياة ، وتبدأ فيها رحلة نجاحك .
- إنها ستكون مرحلة صعبة جديدة فى حياتى ..
- ولكنك ستجتازها ، وستنجح فيها ، كما نجحت
هنا من قبل ، فأنا أو من بك ، وبقدرك على النجاح .
- حقاً يا (عبير) !! ؟
- أأست متأكداً من ذلك ؟

- لقد استمددت من نظرات عينيك ، ومن ذلك
الإيمان الذى ينبعث منهما قدرتي على الشفاء ، وسوف
أستمد منها قدرتي على النجاح .

- إذن غداً تودع تلك الدار .. وتعود من جديد
لشقتك ومكتبك ، وتبدأ فى ممارسة مهنتك ، بتلك العزيمة ،
والثقة ، والإصرار التى أراها فى عينيك الآن .
- وأنت ؟

- لا تقلق من جهتي .. إننى سأبقى من أجل هؤلاء ،
ومن أجل القادمين إلى دار القلوب المعذبة .. وربما ألحق
بك خارج هذه الدار قريباً .

- ولكنك لا تدركين أنك لم تعودى بالنسبة لى تلك

الصديقة التي ساعدتني على النسيان ، وأعادت لي الثقة ..
إنك قد أصبحت بالنسبة لي
- أعرف .. أعرف ..
- ماذا تعرفين ؟
- أعرف أنك تحبني .. لقد فهمت ذلك من نظرات
عينيك قبل أن ينطقه لسانك ..
- ومع ذلك لم تحاولي على الأقل أن تجيبي عن تلك
النظرات بأي رد يريح استفسارها الحائر .
أريد أن أعرف ردك قبل أن أغادر هذه الدار ..
أريد منك أن تخبريني عما إذا كنت محقاً ، إذ تصوّرت
أنك تبادليني نفس شعوري .
- ربما أن ما تظنه حباً ليس له من تفسير سوى تلك
الظروف التي تعارفنا فيها ، وجمعت بيننا في هذه الدار .
إن التجاوب الإنساني الذي حدث بيننا نتيجة ظروفنا
النفسية المشتركة هو الذي أحدث تلك الأحاسيس الخادعة
بالحب ، وهذا شيء يحدث غالباً بين من يمرون بنفس
ظروفنا .

ولكن بمجرد أن تعود للمشاركة في الحياة الاجتماعية
من جديد ، وتبدأ في ممارسة عملك وحياتك ، ستجد أنك
كنت مخطئاً في ذلك الشعور الوهمي ، الذي سيكون مصيره
حتماً إلى النسيان .

داهمني خوف مفاجئ ، فصرخت :
- لا يا (عبير) .. أنت مخطئة هذه المرة .
فلم تكن المشاركة في الأحران ، والتجاوب مع
الآلام ، هي الدافع لهذا الشعور بداخلي .
لقد أحسست بهذا الشعور منذ لقائنا الأول ، برغم
ما انتهى إليه هذا اللقاء .

أحسست أن هناك شيئاً خفياً يشدني إليك ، ويدفعني
إلى حبك ظننته عاطفاً مني تجاه تلك النظرة الحزينة ،
التي رأيته في عينيك ، وظننته مرة أخرى إشفاقاً على تجربتك
الأيمة ، وظننته مرة ثالثة تجاوباً مع مشاركتك الحنون
لتجربتي القاسية .
ولكنني اكتشفت في النهاية أن كل تلك الظنون
لم تكن حقيقية .

فقد كان ذلك الشيء الذى يجذبني إليك اقوى من
تلك المشاعر ، وأعظم ، فقط كنت أحاول أن أخفى
تسميته الحقيقية ، ولا أعترف بها حتى لنفسى ؛ بسبب
تلك العقدة التى خلفتها تجربتى مع المرأة ..

ولكننى الآن وقد شفيت من هذه العقدة المريرة ،
أصبح لدى الشجاعة الكاملة أن أسميه باسمه الحقيقى ..
فليس له سوى اسم واحد ، هو الحب .. فإن كنت تبادلينى
نفس مشاعر الحب ، التى أكنّتها لك ، كما تحدثنى نفسى
فتأكدى أننى سأكون أسعد مخلوق على وجه الأرض
لو قبلت الزواج منى .. وأن نجعل من هذا الزواج الماء
الذى نغسل به كل جراح الماضى .

ولم أكد أنهى حديثى حتى رأيت لحظتها تلك الدمعة
التي حاولت أن تخفيها ، فلم تفلح .. رأيتها وهى تتساقط
فوق وجنتيها .

تكلمت وقد أخذ منى الإشفاق كل مأخذ :

— (عبير) .. إنك تعرفين أننى لا أطيق رؤية دموعك.
إذا كان الموقف الذى أضعك فيه الآن يشق عليك ..

فلتنسى ما قلت .. بل اعتبرى أننى لم أقل لك شيئاً ..

وإذا كنت تخشين أن يكون ردك علىّ بالرفض بمثابة
صدمة جديدة قد لا تحملها نفسى .. فتأكدى أن ذلك
لن يحدث ، وأن ذلك لن يحول دون حبي وتقديرى لك ..
قالت وهى تغتصب بسمه إلى شفيتها :

— (مدحت) .. إن دموعى هى دموع السعادة .. فقد
كنت أظن أن حبك لى وهم فرضته الظروف .. ومن
أعماق كنت أتمنى أن يكون حقيقياً .. حقيقياً بنفس القدر
الذى أحبيتك به .. نعم يا (مدحت) .. إننى أبادلك نفس
الشعور وأكثر .

وتراقص قلبى بين ضلوعى فرحاً بهذا الاعتراف
الذى طالما تمنيت أن أسمعه ..

فيما أكملت (عبير) كلماتها قائلة :

— هل تتذكر حينما قلت لك : إننى عشت طوال الفترة
التي أعقبت رحيل زوجى وابنى عنى وأنا أنظاها بالقوة ،
فى حين كانت جراح الضعف والألم تمزقنى من الداخل ؟
أنظاها بالسعادة وأنا أخفى مرارة الحزن بين ضلوعى .

لقد تبدل كل ذلك معك.. فنذ أن عرفتك أصبحت
أشعر بقوة حقيقية ، استمددتها من وجودك معي بهذه
الدار .

وعدت أشعر بطعم السعادة من جديد ، وهي تتجدد
في كل مرة نلتقي فيها معاً ، ونجلس لتحدث معاً ..

لقد كنت أعتقد من قبل أن ذلك الرجل الذي تزوجته
هو الحب الوحيد في حياتي .. ولكنني بعد أن عرفتك
تأكدت أنني لم أكن أعرف معنى الحب من قبل .

وهكذا تجد أننا متشابهان في كل شيء .. في الأحزان
وفي الأوهام ، وفي المشاعر .

قلت وأنا أكاد أطير من فرط السعادة :

— مهما حاولت أن أقول لك فلن أستطيع أن أصف
مدى سعادتي بما صرحت لي به الآن .. وما دام كلانا يكن
للآخر نفس المشاعر فلنتزوج هذا الحب بالزواج ..

ابتسمت قائلة :

— إنني أوافق بشرط واحد ، هو أن تثبت لي قوتك
ومقدرتك على النجاح في عملك ، وفي حياتك .. أن تكون

محامياً مرموقاً يدافع عن العدالة ، كما تحسب بها داخل
نفسك .

إن النجاح المادي لا يهمني كثيراً .. ولكن نجاحك
المهني والأدبي ، هو في المقام الأول .. فالعمل في حد
ذاته قيمة لا بد أن تحرص عليها .. وشرف المهنة قيمة
أخرى ، يجب عليك ألا تتنازل عنها مهما كانت
المغريات ..

قلت والسعادة لا تكاد تسعني :

— كلما عرفتك أكثر ازداد احترامي لك ، وإعجابي
بك ، ومع ذلك فأنا لا أرى مانعاً من أن نتزوج أولاً ،
ونبدأ معاً مشوار النجاح .

— وهل تحرمني أن أكون بالنسبة لك هدفاً غالياً تعمل
من أجله ؟ إن الحب ليس مجرد كلمات تتردد على الألسنة ..
الحب الحقيقي هدف سام نسعى إليه ، ونعمل من أجله .
وعليك أن تثبت لي أنني سأكون هذا الهدف ، الذي
ستعمل وتنجح من أجله .

— لقد أصبح ذلك الهدف هو كل حياتي الآن ..
وأعدك بأنني سأبذل كل ما لدي من جهد ومقدرة من
أجل أن أكون ذلك الرجل الذي يليق بك .

وتنهدت بارتياح قائلة :

— حسناً .. إذن من الغد تودّع الدار .

— هل يمكن أن أحضر لزيارتك هنا بين الحين
والآخر ؟

— عندما تحرز أول نجاح ، وتكسب قضيتك الأولى ..

— إذن فتلك هي الأمسية الأخيرة التي نقضيها معاً
في هذه الدار .

قالت وقد بدأت تشرد من جديد :

— من يلري كم من الأمسيات الجميلة سنقضيها معاً
في المستقبل ؟

— سألقاك غداً قبل أن أغادر هذه الدار .

— أفضل أن نفرق هنا .. فأنا لا أطيق لحظات
الوداع .

وأمسكت بيدي وهي تضغط عليها برفق وحنان ،
قائلة وعلى وجهها ملامح الحزن والأسى :
— وداعاً يا حبيبي .

— بل لنقل إلى اللقاء يا حبيبتي .

وضغطت على يدي بقوة ، وهي تحاول أن تمنحي
دموعها قائلة :

— نعم .. نعم .. لا بد أن نلتقي من جديد ..



وودعت الدار التي جثتها حاملاً معي جراحى وعذابى
بعد أن بدلت بها بسمه الأمل ، وقوة العزيمة ، التي أودعتها
بداخلى تلك المخلوقة الملائكية .

وعدت إلى مهنة الحماماة .. مهنتى التي أحبها .. ولم
تكن عودتى سهلة .. فقد صادفتنى عقبات ، وصعوبات
متوقعة ..

وظللت شهوراً طويلة فى انتظار القضايا .. ولكنها لم
تأت ؛ فقد كان الجميع ينظرون إلىّ على أنى ذلك المحامى
المريض بمرض نفسى ، والذي دخل المصحة للعلاج .

حتى من كان لا يعرف قصتى مع المرض .. كان
يتخوّف من ذلك المحامى المغمور ، الذى لم يسمع به أحد .
لقد رفض بعضهم حتى أن أنطوّع للترافع فى بعض
قضاياهم .

ولكننى لم أئس .. كافحت .. وثابرت ، ولم أضع
وقتي سدى ؛ فقد سجلت اسمى من جديد فى الدراسات

العليا بالجامعة ، للدراسة (الدكتوراه) وحصرت همى فى
الدراسة ، وإعداد الرسالة .

وكانت البداية الحقيقية بالنسبة للعمل عندما تقابلت
بالصدفة مع أستاذى القديم .. الأستاذ (فوزى) .. الذى
عرف منى أننى فتحت مكتباً ، وبدأت أشق طريقى من
جديد فى مهنة الحماماة ..

ولم يبخل علىّ الأستاذ الكريم بتحويل بعض القضايا
الصغيرة من مكتبه إلى مكتبى ، متعللاً بضيق الوقت ،
وزحمة العمل ؛ حتى لا يجعلنى أشعر بأنه يمن علىّ بهذه
القضايا .

وبدأت أعمل ، وأتنقل بين المحاكم .. كنت أشعر
كأننى أبدأ من جديد ، ولكننى لم أتخاذل .

لقد كان كل ما أحتاج إليه هى قضية كبيرة .. تشد
الانتباه ، وتحمل لى الشهرة المطلوبة ؛ لتثبيت أقدامى .

نعم .. إن القضايا التي كان يرسل لى بها الأستاذ
(فوزى) كانت تدر على دخلا لا بأس به .

لكن لم تكن هذه هى القضايا المطلوبة .. فقد كانت

كلها من نوع الجرح البسيطة .. كما أن المسال لم يكن هو
هدفى ؛ لقد كنت أبحث عن إحدى تلك القضايا الكبيرة
التي تهتز لها المحاكم ، وتصنع شهرة المحامى .

وجاءتني هذه القضية أخيراً .

جاءتني عن طريق (إبراهيم) ابن خالتي .

كانت جريمة قتل ، اتهم فيها أحد أصدقائه ظلماً ،
برغم ثبوت الأدلة ، وتوافرها ضده .

ودرست القضية بعناية ، وكدت أن أرفضها ... فلم
يكن أى محام ناجح على استعداد للتصدى لقضية صعبة على
هذا النحو ، تحاصر الأدلة فيها المتهم من كل جانب ،
وتجعل مهمة النيابة غاية في السهولة ، ولا تحتاج إلى الكثير
من الجهود ، لإقناع القاضى بالعقوبة ..

هذا فضلاً عن أن ضميرى لم يسترح لبراءة هذا المتهم
في البداية من خلال دراستى للقضية .

على أن شيئاً ما فى كلام الرجل ، وفى عيونه وهو
يؤكد لى براءته من تلك الجريمة ، وعدم معرفته بكيفية
وجود كل هذه الدلائل ، التي تشير إلى اقترافه ذلك الجرم ،
جعلنى أقبل قضيته .

وبدأت أفنّد هذه الأدلة واحداً بعد الآخر ، وأستدعى
شهود الإثبات والنفى .

أخذت منى القضية شهوراً طويلة ومجهودات مفضية ..
إلى أن نجحت .. نجحت فى النهاية فى إثبات تلفيق التهمة ،
وبراءة المتهم .

صديقى (رأفت) .. لن أدخل معك أيضاً فى تفاصيل
طويلة حول ظروف هذه القضية وملابساتها .

لكن يكفى أن تعرف أنها كانت البداية الحقيقية
بالنسبة لى .. وكان حكم البراءة الذى دوى فى المحكمة
بمثابة ميلادى الحقيقى فى مهنة المحاماة .

كانت الصحافة والرأى العام كله يقف ضد ذلك الرجل
البرىء ، ويدينه على جريمة قتل بشعة ، راح ضحيتها ثلاثة
أشخاص ، منهم طفل صغير .

وتدريجياً بدأ الرأى العام يتعاطف مع دفاعى ،
ويتحوّل إلى الإشادة بمرافعتى ، التي برأت الرجل ،
وأوضحت للعدالة المتهم الحقيقى ، لحظة محاولته الهروب من
البلاد .

وعرفت طريقى إلى الشهرة ، وتزاحمت القضايا إلى
مكتبى الصغير الذى تحول إلى مكتب كبير ، فى منطقة
راقية .

وتزايدت شهرتى بعد أن تزايد نجاحى .. ولمع اسمى
فى عالم المحاماة .

لم أصدق أن كل ذلك قد تحقق خلال سنة واحدة ..
سنة واحدة فقط ، أصبح بعدها اسم (مدحت عبد السلام)
يدوى فى عالم المحاماة ، والفضل فى ذلك لتلك المرأة
النورانية ، التى آمنت بى ، وأعادت لى الأمل والثقة فى
النفس .

ها هو ذا قد تحقق النجاح المادى بجوار النجاح الأدبى ،
الذى لم تصدقه (كريمة) وآمنت به (عبير) .. وكنت
أحتاج إلى إيمانها وثقتها ، لكى أنجح ..

(عبير) التى عرفت فيما بعد أنها كانت تحضر
جلسات مرافعاتى لترانى وأنا أترافع فى القضايا مختبئة فى
أحد أركان المحكمة ، حتى لا أشاهدها ووجهها ينطق ببريق
السعادة ، لما أحققه من نجاح متواصل .

كنت خلال هذه الفترة ، وبعد أن حققت نجاحى
الأول فى القضية التى ترافعت فيها ، أحاول الاتصال بها
فى الدار دون جدوى ..

وعندما سألت عنها عرفت أنها سافرت إلى أمريكا ،
للبحث عن ابنها من جديد ، وستعود خلال شهر ..

ولكن مررت عدة شهور ، دون أن تتحقق هذه العودة .
لم أقطع الأمل .. وظللت أستأنف طريقى فى النجاح
فى انتظار عودتها ، حتى تأتى لتجد أمامها زوجاً أكثر
شهرة ونجاحاً .. تجد ذلك الرجل الذى يليق بها ، والذى
وعدها أن أكونه ..

وذات يوم جاءنى أحد زملاء الدار القدامى .. جاءنى
بعد أن غادر الدار إثر شفائه ؛ ليرفع دعوى ضد أقاربه ،
الذين استغلوا فترة وجوده بالدار ، للاستيلاء على أمواله ،
وعقاراته ، بحجة مرضه النفسى ، وعدم أهليته لإدارة
هذه الأموال .

وكان أول سؤال سألته حين حضر إلى مكتبى :

— ألم تحضر (عبير) بعد إلى الدار ؟
أجاب مندهشاً :

— ولكن (عبير) لم تفارق الدار .
صرخت دون وعى :
— ماذا تقول ؟ .

أجابني والدهشة لا تفارقه :

— إن (عبير) لم تزل مقيمة بالدار منذ أن تركتها .
قلت وأنا غير مصدق :

— ولكني سمعت أنها سافرت .. لقد أخبرني صاحب
الدار بذلك .

أجابني وهو يهز رأسه بإصرار ، ويقلب شفتيه في
تعجب وحيرة :

— أؤكد لك أنها لم تفارق الدار منذ أن بارحتها .. لقد
كانت تنباهي دائماً بنجاحك ، وتحمل لنا صفحات الجرائد
التي تشير إلى مرافعاتك ، وبراعتك في القانون .

وقرّرت أن أذهب إلى الدار في اليوم التالي .. لن

أفعل كما فعلت من قبل ، بالاتصال مسبقاً مع صاحب
الدار ، والسؤال عنها .

أو المرور عليه قبل دخول مبنى الدار وحديثه .
سأتوجه إلى هناك مباشرة ؛ لأؤكد مما قاله لي ذلك
الرجل .

وأبحث عن (عبير) وسط النزلاء ..



وذهبت لأراها تجلس في حديقة الدار.. ونفس الجمال
النوراني الذي كان يشع منها ، حينما رأيته للمرة الأولى
لم يزل يضيئ عليها بريقه وبهاءه .

وحينما رأيته مقبلاً عليها قفزت من فوق مقعدها ،
وجرت نحوي ووجهها ينطق بالفرحة والاشتياق .
ولكنها تسمّرت في مكانها فجأة.. وبدأ عليها وكأنها
قد تذكرت شيئاً ما ، فتبدلت ملامحها في الحال من الفرحة
إلى الاضطراب .

واقتربت منها متسائلاً :

— (عبير) .. لماذا كنت تخفين وجودك عني ؟

ما الذي جرى ؟

— لم أرغب في أن تشغل بي عن قضاياك وأعمالك .

— إن كل ذلك لم يكن ليساوي شيئاً بدونك .. أنت

تعرفين أن كل هذا النجاح والبريق ، كان الفضل فيه لله

ولك .. فكيف تحاولين إخفاء وجودك عني ، وأنت

المشعل الذي أضاء ويضيئ لي الطريق ؟

***** ١٠٤ *****

— (مدحت) .. إن كل ما حققته كان الفضل فيه

لمجهوداتك ، وإصرارك ، ومثابرتك .. إني لم أفعل شيئاً
سوى أنني جعلتك ترى نفسك على حقيقتها .. ترى الطاقات
الكامنة فيك ، التي كنت تجهلها .

فلا تحملني فضلاً لا أستحقه .. وكفّ عن أن تجعل
من أي مخلوق الهدف النهائي لآمالك وطموحاتك ..

يجب أن تكون ناجحاً وقوياً بذاتك ، ولنفسك ..
وكفاك أن تعمل من أجل الآخرين .

— (عبير) .. ماذا تقولين؟ إن الحياة ليست مجرد نجاح

مادى وأدبى .. إن الحياة أولاً وقبل كل شيء مشاركة ،
وحب ، وتضحية .

لقد اتفقنا على أن المشاعر السامية تأتي في الدرجة
الأولى ، إن طاقة حبك هي التي دفعتني للنجاح ، وصورتك
لم تفارق خيالي في كل خطوة كنت أخطوها ..

— هذا عيبك الوحيد يا (مدحت) .. إنك مغال في
رومانسيتك .

— برغم أن الرومانسية لا تعد عيباً ، بل دليلاً على

***** ١٠٥ *****

رقة وارتقاء الإحساس.. إلا أنني سأكون واقعياً ، وأقول
لك الآن هأنذا قد بررت بوعدى لك .. فهل تقبلين الزواج
من رجل أحبك ، وسيظل يحبك طوال عمره ؟

كانت إجابتها مفاجأة غير متوقعة على الإطلاق :

— أستاذ (مدحت) .. إننى أراك الآن وقد اجتزت
أزمتك تماماً ، بل أكثر من ذلك استطعت أن تحفر نجاحك
بيدك ، وتحقق ذاتك من جديد .

وذلك يعطينى القدرة والشجاعة على مواجهتك بالحقيقة ،
دون خوف عليك ، أو حرج منك .

إننى أعمل طبية فى هذه الدار .. وكل ما حدث بيننا
من أحاديث ولقاءات لم يكن سوى جزء من العلاج
النفسى الذى نتبعه هنا .. فنحن نتبع أسلوباً جديداً فى
العلاج النفسى ، يقضى بإلغاء المسافة بين المريض والطبيب ،
دون إشعاره بذلك .

وخاصة ذلك النوع من المرضى الذين يرفضون
العلاج النفسى .. فنجعلهم يعتقدون أن الطبيب هو أحد
المرضى الموجودين بالدار ؛ حتى يفتح له صدره ، ويبوح
له بأزمته .

ويبدأ من هنا دورنا فى العلاج ، بحسب الحالة التى
نقابلها ؛ فقد كان دورى محدوداً ، بأن أجعلك تتغلب على
أزمتك النفسية دون علاج عضوى ، ثم إعادتك إلى
التوازن الطبيعى بينك وبين المجتمع .

لقد كانت قصتى مع الزوج والابن المهاجر قصة
كاذبة ، الغرض منها النزول إلى مستوى أزمتك ، واكتساب
التعاطف المطلوب بينك وبين الطبيب .

ولما رأيتك منجذباً إلى ، قرّرت أن أستغل عواطفك
نحوى كوسيلة لشحذ همتك ، وتقوية إرادتك ، للعودة
للاندماج مع المجتمع .

وأعتقد أنك تغفر لنا كل ذلك ، ما دام الهدف الذى
نسعى إليه هدفاً نبيلاً .. والنتيجة واضحة بالنسبة لك .

كما أعتقد أنك الآن تقدر موقعى ، حينما أقول لك إننى
لن أستطيع أن أجيبك إلى طلبك بالزواج .

كانت صدمة أليمة لى .. صدمة جديدة فى حياتى ..
وظللت للحظات مذهولاً ، وأنا غير مصدّق ما سمعته
أذنأى .. ولا أدري ماذا أقول .

شعرت بدوار .. دارت الدنيا من حولي .. زاغت
نظراتي .. ها هي ذى لطمة أخرى تنزل على رأسي .. هل
كتب عليّ كلما نهضت على قدمي أن أنال لطمة أليلة مميتة
من القدر .. لم هذا يا ربّي .. لم أدر ماذا أفعل أو ماذا
أقول .. لم أشعر بنفسى وأنا أقول ، وقد انفجر من داخلي
بركان من الغضب :

— إذن فالأمر لا يعدو أن يكون خدعة جديدة ..
كل هذا الحب .. كل تلك الكلمات .. كل تلك الدموع
التي كانت تتساقط على وجنتيك ، كل أولئك لم يكن
سوى تمثيلية رخيصة .

وتتكلمين عن الأهداف النبيلة .. أى أهداف نبيلة
تلك التي تستغلين من خلالها مشاعر وعواطف إنسان مريض
وتوهمينه بالحب ؟

من أجل ماذا ؟ من أجل أن يتغلب على معاناته ؟
وهل قدرت مدى المعاناة التي يمكن أن تتخلف له من
جديد ، من جراء صدمة أخرى ؟

هل أردت أن تشفيني من خدعة عشتها بخدعة جديدة ؟

هل قدرت ما يمكن أن يحدث لرجل يصدّم في عواطفه
ومشاعره مرتين ؟ .. لا يا سيدتي لا تتحدثي عن الأهداف
النبيلة .. إن الأمر لم يكن يعدو بالنسبة لك سوى محاولة
لإثبات نجاحك وتفوّقك المهني ، مهما كانت الوسيلة
والأسلوب .

وأنا أشهد لك بأنك كنت بارعة في أدائك لدورك ، إلى
درجة جعلتني أصدق من جديد ، أنه يوجد في هذه الدنيا
المرأة المخلصة الصادقة في مشاعرها وحبها .

جعلتني من جديد أعود ، فأسلم قلبي وحيي وإخلاصي
لامرأة ، برغم التجربة القاسية التي عشتها .

إنك تستحقين شهادة تفوّق على علاجك البارع ،
ولكنه سيكون تفوّقاً رخيصاً لامرأة حقيرة .

كانت الكلمات تندفع مني كالطلقات .. لم أدر ماذا
أقول .. خيّل إليّ أنني سأتساقط إلى الأرض من فرط
عذاباتي وآلامي .. وصدمتي الثانية .. أواه يا ربّي !! أواه .
لم يبد عليها أنها صدمت بهذه الكلمات إذ سمعتها تقول :
— أستاذ (مدحت) .. كفاك إهانات .. كان يجب

عليك أن تشكرني .. فلولاى ما كنت قد وصلت إلى المكانة

التي أنت عليها الآن .. وكفأك حديثاً عن الصدمات الجديدة،
والمعاناة الجديدة .. فأنا أعرف الآن جيداً أنك قد أصبحت
على درجة من القوة والثقة، تحول بينك وبين أية صدمات
جديدة .

إن كلاً منا يؤدي دوره بحسب ما هو مطلوب منه ..
ودوري في هذا المكان يقتضي مني ذلك الأسلوب الذي
أخبرتكم به ، والآن أيمكنك أن تنصرف وتدعني لأمارس
عملي ؟

رفعت إليها عيني زائغتين ، وابتسمت بمرارة ، وقلت
وأنا ألهم :

— تقصدين لتمارسي خداعك .. هل عثرت على
ضحية جديدة من بين هؤلاء تمثلين عليها دور الشفقة
والحنان والحب ؟

أدارت لي ظهرها منصرفة ، ولكني أمسكت بذراعها
بعنف ، دون أن ألحظ تلك الدموع المتحجرة في عينيها ،
قائلاً لها :

— حسناً .. إنني سوف أنصرف يا سيدتي .. سأنصرف
ولن تريني بعد اليوم .

ولكن أريد منك أن تتأكدي من شيء واحد .. هو
أنني لن أسمح لأى امرأة أن تقهرني بعد الآن .
نعم .. كما قلت .. لقد أصبحت قوياً إلى الدرجة التي
لن أسمح فيها لنفسى بانهيار آخر ، من أجل إنسانة
لا تستحق حتى نظرة احتقار .

لقد وقفت على قدمي من جديد ، ولن أعود فأسقط
على الأرض بعد اليوم أبداً ..
وتركتها منصرفاً ، وقد أعماني الغضب عن رؤية تلك
الدموع المتحجرة ، وهي تتساقط من عينيها .

* * *



مرّ على هذا اللقاء العاصف عدة شهور ، أفنيت فيها
نفسى فى العمل ، محاولاً الهروب من مرارة هذه التجربة
الجديدة .

وكان (إبراهيم) ابن خالى يعارضنى دائماً فى ذلك
الأسلوب ، الذى هاجمتها به قائلاً :

- لم يكن يحق لك أن تهينها على هذا النحو .. أنسيت
أنك مدين لها بكل ما وصلت إليه الآن من نجاح ؟

قلت والمرارة تملأ نفسى :

- لقد كنت أفضل أن أظل فى شقائى القديم ، مؤمناً
بصدق حبها ومشاعرها ، على أن أشقى بواسطة خدعة
رخيصة ، واستغلال مهين لعواطفى .

- إننى لا أوافقك على هذا رأى .. فلم تكن هناك
أى وسيلة أخرى لإخراجك مما أنت فيه ، سوى ذلك
الأسلوب الذى اتبعته معك ، ومهما كان هذا الأسلوب
فإنه قد أعادك إنساناً جديداً .

وهذا فى حد ذاته سبب لأن يجعلك تدين لها بالفضل ،
لا أن تصبّ فوق رأسها جام غضبك ، وكل هذه الإهانات
واللعنات .

- إننى أتحدث هنا عن خيانة المشاعر ؛ فهى فى ذلك
لا تختلف كثيراً عن (كريمة) .

- لا .. اسمح لى أن أقول لك : إن الاختلاف كبير ،
وواضح .. لقد خانت (كريمة) حبها لك طمعاً فى الثروة
والمال .. وأدت خيانتها إلى انهيارك النفسى .

أما (عير) .. فقد كانت تؤدى معك منذ البداية عملاً
نبيلاً ، أفضى فى النهاية إلى شفائك ، وتفوقك فى عملك ،
وحياتك الاجتماعية .. الاختلاف هنا واضح .

- كلتا الاثنتين خانتا مشاعرى .

- ولكن هناك فرقاً بين الأهداف النبيلة والغايات
الرخيصة .

- لا تحدثنى مثلها عن الأهداف النبيلة .. فالأهداف
النبيلة لا تبررها إلا وسائل نبيلة مثلها .

— وما ذنبها إذا كانت طبيعة عملها تقتضى منها ذلك ؟

— أرجوك يا (إبراهيم) ، فلنغلق هذا الموضوع ،
ولا نحاول أن تفتحه معى مرة أخرى .. أريد أن أنساه ..
أنساه تماماً .

— بكل ذلك الكم الهائل من القضايا التى تغرق نفسك
فيها .. إنك لا تدع مجالاً لأولئك المحامين الصغار الذين
يعملون معك لعمل أى شىء .

— أريد أن أعمل .. وأعمل .. لقد فاتنى الكثير ..
وأريد أن أعوض الكثير مما فاتنى .

— بل تريد أن تهرب فى هذا التفانى الزائد عن الحد
فى العمل .. إنه الخوف من أن تختلى بنفسك لحظة ، فتذكر
وتعيش المعاناة من جديد ..

— هل ستعود مرة أخرى إلى هذا الحديث ؟

— إن ما يهمنى هو حالتك الصحية .. إنك تبذل
مجهوداً جباراً فى العمل ، وهذا سيأتى على حساب صحتك
وأعصابك .. إننى أقترح أن تحصل على إجازة ولو لمدة

أسبوع ، تقضيها فى أى مكان هادئ ؛ لتريح جسدك
وعقلك .

— لا .. لا .. إن أعصابى من حديد .. ولا تخش على
من شىء ، فأرادتى الآن تطالبنى بالعمل ، والمزيد من
العمل ، وهذا يعنى المزيد من الشهرة ، ومن النجاح ،
وهذا محور حياتى الآن ..

— وقضية السيدة (رجاء) .

— سلمها لـ (ممدوح) .. دعها تقابله ، وتشرح له
ظروف قضيتها .

— ولكنها تحتاج لمحام قدير مثلك .

— إننى لن أدافع عن أى امرأة بعد الآن .. لا أستطيع
ذلك مهما كانت ظروف القضية .

فالمرأة أصبحت ترتبط فى ذهنى بالغدر والخديعة ..
وأنا لا أستطيع أن أدافع عن إنسان لا أثق به أبداً .

وفتح (إبراهيم) باب الغرفة لينصرف ، ولكنه
قبل أن يفعل نظر إلى قائلاً :

وفي أحد الأيام أخبرني سكرتيري في المكتب، أن هناك رجلاً يريد مقابلي .

وطلبت منه أن يأذن له بالدخول .

وكم كانت دهشني ، حينما وجدت أن ذلك الزائر لم يكن سوى ذلك الرجل الصالح ، صاحب الدار .

وقمت لتحيته .. ولكنني شعرت أن رؤيته تعيد إلى ذهني تلك الذكرى المؤلمة من جديد .. فلم أستطع أن أمنع نفسي من أن أقول له متهمكاً :

— أما زلت تستخدمون تلك الطرق الخداعية في علاج المرضى ؟

— أجبني الرجل في تسامح واضح :

— أعتقد أنك لا تستطيع أن تنكر فضل هذه الطرق الخداعية يا أستاذ (مدحت) .

— لا .. لا أنكر بالطبع .. إن لها فضلاً عظيماً .. لذلك سأكتب لك الآن شيكاً بالمبلغ الذي تحدده .. إنه أقل شيء أقدمه مقابل أفضالكم العظيمة على .

— إن عداؤك غير عادل يا نصير العدالة .. ومع الأسف أقول : إنني أرى أنك لم تشفِ تماماً .
وأغلق الباب خلفه ، في حين ظالت للحظات أفكر في كلماته ، ثم ما لبثت أن عدت أغرق نفسي في العمل من جديد .



كما أننى سأكتب شيكاً آخر إلى طبيبتكم البارعة ..
آسف .. أقصد ممثلتكم البارعة (عبير) .. فقد قامت بالدور
الأكبر فى تمثيليتكم الإنسانية .
وقابل الرجل انفعالى الساخر بهدوئه المعتاد ، وقد
نمت ملامح وجهه عن أمارات الأسى والألم ، قائلاً لى
بنبرة حزينة :

— أعتقد أن (عبير) لن تكون بحاجة قط لشيكاتك .
— لماذا ؟ لأنها تسمو بأهدافها النبيلة فوق المال .
— لأنها ماتت أمس !!
ووجدتنى أتهالك فوق مقعدى من وقع الصدمة ، وقد
انتابنى الدهول ، وأخذت أردد :
— ماتت ؟ عبير ماتت ؟ غير معقول ! .
وأجابنى الرجل بهدوئه الحزين :
— نعم ماتت .. ماتت دون أن تدع لنفسها الفرصة ،
لتبرئة نفسها أمامك من اتهامك الظالم .
رفضت أن تحصل منك على حكم البراءة ، حتى فى
لحظات وداعها الأخير ..
وكنتم لم أزل أردد وأنا غير مصدق :

— عبير !! عبير ماتت !!

— أستاذ (مدحت) .. اسمعنى جيداً .. أنت تعلم أن
القاعدة التى وضعناها بالنسبة للدار ، هى الاحتفاظ بالأسرار
الشخصية للنزلاء ، وعدم إطلاع الغير عليها ، لأى سبب
من الأسباب .. ما دامت هذه هى رغبة النزيل .

ومع ذلك فقد كنت مستعداً لمخالفة تلك القاعدة
للمرة الأولى وإطلاعك على ذلك السر الذى أخفته عنك
(عبير) ، ورفضت أن تعرفه عنها ، لولا إصرارها وتوسلها
لى بالمحافظة على هذا السر .. أما الآن ، وقد غادرت الدنيا ،
فإننى أعفى نفسى من الاستمرار فى الحفاظ على هذا السر .
إن ما لا تعرفه عن (عبير) ، هو أنها قد جاءت إلى هذه
الدار منذ ثلاث سنوات ، بعد أن أكد لها الأطباء أن تلك
السنوات الثلاث هى كل ما تبقى لها من الحياة .
فقد أصيبت بمرض خبيث استشرى فى جسدها ، ولم
يعد هناك أمل فى علاجه ، أو الشفاء منه .

ولم يعد لدى الأطباء ما يقدمونه إليها ، سوى بعض
المسكنات ، التى توقف الآلام الرهيبة لذلك المريض .

وقد أعقبت تلك الصدمة العنيفة .. فجميعتها برحيل زوجها ، وابنها عنها فقصة ذلك الرحيل كانت حقيقية ، ولم تكن كاذبة كما أخبرتك ، وكان كل ذلك كافياً ؛ لكي تسلم نفسها للانهار واليأس ، وهي تنقم على تلك الدنيا التي أتت إليها .

إنسانة غيرها كان يمكن أن تستسلم للأحزان ، تقتلها قبل أن يفتك بها مرضها الخبيث .

ولكنها لم تستسلم ، بل أرادت أن تستغل السنوات الثلاث الباقية من عمرها في إسعاد الآخرين .

أرادت أن تمد يدها بفعل الخير إلى من يحتاجونه ، قبل أن ترحل عن الدنيا .

فجاءت إلى دار القلوب المعذبة ، لتقضى بها البقية الباقية من عمرها وسط غيرها من البؤساء ، الذين أرادت أن تسعدهم ، وتساعدهم ، برغم أنها كانت أحوجهم إلى المساعدة .

لم تكن طيبة معينة بالدار كما أخبرتك .. ولكنها

كانت ملاكاً ، ينشر رحمته على أولئك المعذبين ، الذين رأيتهم في الدار ، وكنت واحداً منهم .

وظلت تؤدي دورها النبيل ، حتى اللحظات الأخيرة من عمرها القصير ، قبل أن تودع هذه الدنيا .

وأخذت الدموع تنسال على خدي ، وأنا أهز رأسي أسفاً وندماً .

فيما تابع الرجل حديثه ، قائلاً دون أن يعبا بدموعى :
- بقي شيء واحد لم تعرفه ، وأصررت (عبير) على إخفائه عنك ، وهو أنها قد أحبتك فعلاً .

أحبتك بكل ذرة في كيائها المريض .

لم تكن بالنسبة لها إحدى الحالات الإنسانية التي تحاول مساعدتها ، ومداواة جراحها ، مثل بقية نزلاء الدار .

بل كنت حبها الكبير ... الحب الذي تسلك إلى مشاعرها الراحلة ، وقلبها اليائس أمام المرض .

ولكنها كما لم تجدد أمام حبك الذي تسلك إليها سبيلاً لمقاومته ، كانت تعرف أنها لن تجد أمام قدرها المحتوم سبيلاً لمعاندته .

فلم تقبل أن تجعلك تشقى بزواجك من امرأة مريضة
مثلها .. أيامها في الدنيا معدودة .

ثم قام واقفاً وهو يمد لى يده بخطاب قائلاً :
- لقد طلبت منى أن أسلمك هذا الخطاب أمس ، قبل
رحيلها بساعات .



١٦ - خطاب، ووصية ..

وأمسكت بالخطاب لأفضه وأقرأه بأصابع مرتعشة ،
وأنا أنشج في بكاء حار :

« حبيبي (مدحت) .. حينما تقرأ هذا الخطاب أكون
أنا قد فارقت هذه الدنيا .. إتنى أعرفك جيداً حساساً ، تحمل
نفسك بأكثر مما تستحقه .. أريد منك أن تعدنى بالألا تسلم
نفسك مرة أخرى لمشاعر الندم ، وتنحنى تحت وطأة
عذاب الضمير .

فلم يكن لك يد في كل هذا .. لم تكن تعرف شيئاً عن
مرضى .

وعن ظروفي التي أخفيت عنها عنك خوفاً عليك .

كل ما حدث لم يكن لى ولا لك يد فيه .. لأنها
ترتيبات القدر ، وقد أراد أن يكون كل شيء بيننا على
هذا النحو .. فنحن لا نملك اختيار أقدارنا ولا تغييرها ،
ويجب ألا نبكى على شيء لا نستطيع اختياره ، أو تغييره ،
أو دفعه ..

عليك أن تعدنى بأن تظل حريصاً على النجاح الذى
أحرزته ، محتفظاً بشخصيتك الجديدة القوية .. وألا تتخلى
عن روح التفاؤل والأمل .. ذلك الأمل الجميل الذى سعدنا
بتحقيقه معاً ..

ولى عندك مطلب آخر .. إذا استطاعت الأيام أن
تجعلك تلتقى يوماً ما بابنى (عمر) ، أرجو أن تقول له : إن
أمه فارقت هذه الدنيا .. وهى لا تجد فيها سوى اثنين :
أنت وهو .

أرجوك أن تحافظ على كل ما طلبته منك من وعود .
ومن يدرى قد تتقابل أرواحنا يوماً ما فى ذلك العالم
الآخر ، حيث لا خيانة ولا خداع ، ولا مرض ولا فراق ؟
وربما قد نستطيع فى ذلك العالم ، أن نحقق ذلك الحلم
الجميل ، الذى لم يمكننا القدر من تحقيقه على الأرض ،
(عبير)

وألقيت برأسى على المكتب ، وأنا منخرط فى بكاء
عنيف ..

عزيزى (رأفت) .. وحتى اليوم لم أزل أبذل العديد
من المحاولات للبحث عن (عمر) ابن (عبير) ، حتى
أبلغه برسالة أمه ..

كما لم أزل أحرص حتى اليوم على الذهاب إلى قبر
تلك المرأة النورانية ، وأرجع بذاكرتى إلى الماضى .. إلى
لقائنا الأول ، وكيف بدأ بإهانتى وتجريحى لها ، وإلى لقائنا
الآخر ، وكيف انتهى بنفس الإهانات والتجريح ..
وأتخيل ما بين اللقاءين من ذكريات حلوة .. تلك الكلمات
الرقيقة والنظرة الحانية .. اللهفة فى اللقاءات التى كانت
تجمعنا وتلاشى الزمن فى اللحظات التى نقضيها معاً ..

العزيمة التى كانت تشحذها فى نفسى .. والأمل
والتفاؤل اللذان زرعتهما فى روحى اليائسة .
وأعود فأنظر إلى قبرها ، وكأننى أتحدث إليها ،
وأستمع منها :

— (عبير) .. إننى لن أسامح نفسى أبداً على ما اقترفته
فى حقك .

— أما أنا فإننى أسامحك من كل قلبى .. لقد أحبتك ،
ومن يحب لا يعرف إلا التسامح .

— لقد قابلت حبك الكبير ، وتضحيتك بالبحرود .
— إنك لم تكن تعرف .. لا تعذب روحى فى السماء
بعذابك على الأرض .. هل نسيت وعدك ؟
ابتسم للحياة ، وأقبل عليها ، بكل ما زرعناه معاً من
تفاؤل ، وأمل وعزيمة .. أرجوك يا حبيبى .. لا تخلف
وعدك ..

ووجدتنى أردد لنفسى :
— أعدك .. أعدك بذلك يا حبيبة عمرى .

* * *

عزيزى (رأفت) .. هكذا يا صديقى كانت نهاية
قصتى معها .. وذلك هو دورها العظيم فى حياتى .
ومهما حييت .. فلن أنسى طوال عمرى ذلك الملاك
المعذب ، فى صورة امرأة لم تعرف فى عمرها القصير على
هذه الأرض ، سوى أن تكون مثلاً حياً للتضحية ،
وإنكار الذات ...

* * *

[تمت بحمد الله]

● العدد القادم ●

يا قلب لا تغفر ..

فقدت (هويدا) شقيقها فى حادث سيارة ، ويتضح
أن والد قائد السيارة من الشخصيات البارزة ، مما يعاونه
على استئجار شخص يعترف بالحادث زوراً .. وتصر (هويدا)
على الانتقام من القاتل الحقيقى ، ولكنها تقع فى حب
شقيقه (طارق) ، وهنا يبرز صراع قوى فى أعماقها ..
أتغفر لقاتل شقيقها من أجل حبها؟ .. أم تسعى للانتقام ،
وتأمر قلبها ألا يغفر ؟
أختار الحب أم الانتقام ؟

المؤلف



أ. شريف شوقي

السلسلة الوحيدة التي لا يجد الأب أو الأم حرجاً من وجودها بالمنزل

هي في حياتي

«تعرض (مدحت) لصدمة
عاطفية حادة زلزلت كيانه ،
وكادت تعصف بحياته ، لولا أن أرسل
القدر في طريقه ملاكاً رقيقاً في صورة امرأة
استطاعت أن تنتشله من وهدة اليأس إلى ذروة
النجاح .. ولكن ما هو المصير الذي
ستؤول إليه علاقتهما .. تلك
العلاقة التي نسجت خيوطها من
نسيج الحب والألم ؟

التمن في مصر
وما يعادل دولاراً أمريكياً في سائر
بقية العالم